الفصل الثالث

حزب الأمة بين السلطتين الشرعية والفعلية

- حزب الأمة والخديوى عباس حلمى .
- موقف الحزب من المعتمدين البريطانيين .
- علاقات الحزب برجال الاحتلال .
- نظرية الحزب فى الاحتلال والجلاء .

ترجع علاقة الخديوى عباس الثانى بحزب الأمة الى اصلين رئيسيين تتفرع عنهما شتى المواقف ، اولهما علاقة الخديوى بمحمد عبده ، وما انتابها من عداء بين راجع فى أصله الى افكار الشيخ المناوئة لرغبات الخديوى ، ولعلاقة الشيخ بكرومر والوكالة البريطانية ، والتى انعكست بشكل تام او جزئى على جماعة محمد عبده ، وثانيهما يتمثل فى موقف الأعيان الجديد ، بعد نمو طبقتهم من صاحب السلطة الشرعية فى البلاد ذلك ان كبر حجمهم الاقتصادى والاجتماعى قد دفع بهم للمشاركة فى السلطة . ومن ثم لم يكتفوا بنشاط نيابى شكلى ، فكانت رغبة المزاحمة فى الميدان السياسى لابد وأن تقودهم الى الاحتكاك بالخديوى ، كما انه — وطبقا للاصل الأول — فانه بعد وفاة محمد عبده كان لابد لجماعته من اعادة النظر فى موقفها من الخديوى .

انتابت الخديوى الشكوك والمخاوف من هذه الجماعة وكيف لا وهم انصار خصمه القديم ، خاصة وهو لا يزال يذكر انسلاخ بعضهم عنه بعد أن كانوا قد انتووا العمل تحت رعايته فى الجمعيات السرية ليلتفوا حول الشيخ ، ويوثقوا علاقتهم بدار الوكالة ؛ او بمعنى آخر عندما بدا أن النصر منعقد لكرومر فى صراعه مع عباس فى اجتذاب افراد الجماعة ، واحساس عباس بالخذلان ازاء نجاحات كرومر وضرباته المتلاحقة . وكان محمد عبده

يكن احتقارا دفينا لأسرة محمد على (١) ، وبالاضافة الى ما بثته العلاقات السابقة فى نفس الخديوى من الشكوك والمخاوف فقد تخوف من ثقل هذه الجماعة الفكرى وتشبعها بالمبادئ الجديدة ، التى ان نجحوا فى التعبير عنها فى نطاق حزب سياسى ، سوف يمسون سلطته بشكل أو بآخر وقد عبر الخديوى عن قلقه من ظهور حزب الأمة ، حيث بعث من أوربا مستفسرا عما اذا كان لسعد زغلول وأخيه فتحى يد فى هذا الحزب . واتهمه بالتشيع لكرومر ، وتلقى الوحى منه (٢) وقد اظهر امتنانه عندما انكر فتحى زغلول أن له صلة بالحزب (٣) كما عجل الخديوى بدفع حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية الى الظهور بعد أن حاول ادخال على يوسف فى عضوية شركة « الجريدة » فرفض رئيسها مما حقق مخاوفه خاصة وقد جاء فى أسباب رفض على يوسف « أن أعضاءها لا يوافقون على خطة ومبادىء المؤيد المتعلقة بعلاقة الحاكم والمحكوم » (٤) .

ومنذ العدد الأول عبرت الجريدة عن موقف حزبها من الخديوى ، فتجاهلت السلطة الشرعية ، وتحدثت عن الرأى العام ، وسلطة الأمة ، ودابت على غمز المعية السنية بأن المعية ليست هى الأمر وانما هى ديوان من دواوين الحكومة واعلنت ان من حقها نقد الأمر نقدا صريحا . وتساءلت: وهل الملوك والأمراء معصومون فلا يحق لاحد أن يتكلم عنهم الا بالاطراء والثناء ؟ (٥) كما شرعت فى انتقاد تصريحاته للمستر « دايمى » ، وركزت على أن سموه يعتقد أن الأمة المصرية ليس لها وجود سياسى ذاتى ولا تطلب

---

(١) وربما كان نفس موقف حزب الأمة من تاريخ الأسرة الخديوية هو موقف أستاذهم فحين وزع ديوان الأوقاف نبذة تاريخية عن محمد على احتفالا بذكراه لم تنشر الجريدة منه الا مقتطفات من الارسالية فى عهده كما لم تعلق عليها بشىء اكثر من قولها انه كان حريصا على جعل كل شىء مصريا بينما لم تكتب شيئا عن الأسرة فى أية مناسبة أخرى ، مما يظهر تقديرا أو ولاء من نوع ما . انظر الجريدة ١٦٦٢ فى ٢٧ أغسطس ١٩١٢ ذكرى محمد على .

(٢) مذكرات الخديوى عباس الثانى — المصرى عدد ٤٨٣٢ فى ١١ مايو ١٩٥١ وكذلك : Ahmed, J.M., op. cit. p. 71

(٣) مذكرات سعد زغلول ، كراس ٧ ، ص ٢٠٢

(٤) الجريدة ١٧٣ فى ٣٠ سبتمبر ١٩٠٧ .

(٥) الجريدة ٢٢ ، ٢٥ فى ٢ ، ٦ أبريل ١٩٠٧

الاعتراف لها بهذا الوجود وان المصريين يريدون ان يظلوا محكومين بالحكومة الشخصية اى الاستبدادية ، وفسرت ذلك بأن شعوبه لا يريد أن يساعدنا مساعدة فعلية على ان نكسب بالتدرج حكومة ذاتية (٦) ولما اعلنت مبادىء الحزب ، لم يكن فيها ما يشير الى موقفه من الحقوق الخديوية من قريب ولا من بعيد ، الأمر الذى اثار ثائرة الخديوى ، فأسف بدوره عن موقفه العدائى من القائمين بأمر الجريدة ، بل لقد هددهم بالنفى او العزل من الوظائف (٧) كما لجأ الى استقطاب بعضهم بمنحهم الرتب والنياشين . فقد منح فتحى زغلول نيشانا عقب اقراره بأن لا علاقة له بالحزب (٨) وأوعز الى صحفيه الأثير على يوسف القيام بحملة صحافية لاحداث شقاق بين مؤسسى الحزب وضربهم ببعضهم البعض وقد نجح فى ذلك الى حد كبير . فقد خصصت المؤيد ما يعتبر بابا يوميا لنشر اخبار الاستقالات من الحزب والجريدة تحت عنوان « بين الجريدة ومساهميها » فى الفترة من ٢ حتى ٢٣ يناير عام ١٩٠٨ (٩) ويبدو أن الخديوى كان وراء سقوط لطفى السيد فى انتخابات مجالس المديريات (١٩٠٨) (١٠) ولم يكن الخديوى ليستطيع أن يؤثر بهذه الفعالية لولا سياسة الوفاق التى منحته قدرا من حرية

---

(٦) الجريدة ٦٦ فى ٢٧ مايو ١٩٠٧ وقد أدلى الخديوى بهذا الحديث الى المستر دايسى الصحفى الانجليزى وذكر فيه أنه لا يتصور الحكومة فى غير شخص الحاكم نفسه ، وأنه مثل الحكومة الشخصية على شكل يعجز عنه اى قنصل جنرال اجنبى (أنظر لطفى السيد : صفحات مطوية ، ص ٦٣ — ٦٤) .

(٧) فقد ذكر محمد محمود لسعد زغلول أن كثيرا من المشتركين يخشون النفى لانه طالما يعقولهم طائف يقول ان كل من بقى فى شركة الجريدة ينفى مهم الآن مملوون بالخوف . مذكرات سعد زغلول ، ك ٧ ، ص ٣١٨

(٨) مذكرات سعد زغلول ، ك ٧ ، ص ٣٠١

(٩) وقد بدأت الحملة باستقالة عثمان سليط ومحمود الاتربى (المؤيد ٥٣٥٨ فى ٤ يناير ١٩٠٨) ثم استقالة احمد عفيفى باشا (المؤيد ٥٣٦٤ فى ١١ يناير) وتوالت بعد ذلك استقالات تمام كساب واحمد رفعت وأمين الشمسى وسيف النصر محمد (المؤيد ٥٣٦٥ فى ١٢ يناير) . ونشرت كتابا لعفيفى باشا يذكر فيه أن كل أعداد الجريدة منذ ظهرت تدل على أنها تناوىء السلطة الشرعية دون سواها (المؤيد ٥٣٦٦ فى ١٣ يناير ١٩٠٨) .

(١٠) مذكرات سعد زغلول ، ك ١٢ ، ص ٥٩٠ « الحاصل أن تدخل الجناب العالى فى الانتخابات هذا العام محقق كان ذلك بواسطة جنود كثيرين » — وأنظر كذلك لطفى السيد ، قصة حياتى ، ص ٨١ — ٨٢

الحركة ، حين بدا ان المسافة تزداد تباعدا بين الحزب والوكالة مما ادى الى تخبط « الجريدة » بين مغازلة الخديوى ، وجورست ، والابتعاد عن كليهما . فقد لوحت لجورست بأن الوفاق لا يبعد رجالها عن مليكهم وذكرت ان الانجليز اذا تذرعوا بأن الوطنيين المصريين يحملون على مليكهم كما يحملون على الانجليز فاننا ندفع من الآن هذه الدعوى بأن المصريين يحبون مليكهم ويؤيدونه (١١) وفوق هذا حاولت الجريدة انتزاع الخديوى من احضان جورست فردت على الجرائد الانجليزية اتهامها للحركة الوطنية بانها موجهة ضد الأمير وعلقت بانهم « يريدون ان يغيروا قلب الامة على اميرها المحبوب ليوجدوا بينهما خلافا يكون مرسحا للدسائس الانجليزية » (١٢) وتتلطف لهجة الجريدة ، وهى تطلب الدستور من « سمو الأمير المحبوب » وتفصل بين انصار السلطة الشرعية وانصار السلطة الشرعية الشخصية لتوضح انها من انصار الأولى (١٣) ولم يفقد الحزب الأمل فى الخديوى بعد بالرغم من ان الجريدة وهى تتحاشى الحملة على شخص الخديوى ما استطاعت خشية أن تلتصق بها تهمة عدم الولاء للعرش ــ كانت تبرز دائما ان الحكومة ما هى إلا حكومة الأمير وهى حكومة شخصية (١٤) وعندما اثيرت مسألة الرتب والنياشين وجهت النقد المر للحكومة وتساءلت كيف تمنح الرتب والنياشين وهى شخص ادبى ؟ » (١٥) وحتى أواخر عام ١٩٠٨ لم يطرأ تغير اساسى فى علاقة الحزب بالخديوى ، وان كان هناك تهادن ظاهرى كان من مظاهره اشتراك محمود باشا سليمان وعلى شعراوى باشا فى جنازة ابن الشيخ على يوسف ، مما جعل سعد زغلول يعتقد أن ذلك كان مسبوقا بصلح خاص بينهما ، أو مندرجا تحت صلح عام انعقد بينهما وبين عابدين ، ودلل على ذلك بانه رأى على شعراوى ضمن اللجنة التى تعينت لاستقبال الخديوى فى

---

(١١) الجريدة ٤٠١ فى ٢ يوليو ١٩٠٨ (الغرض من سياسة الوفاق) .
(١٢) الجريدة ٤٤٥ فى ٢٣ أغسطس ١٩٠٨
(١٣) الجريدة ٤٥٧ فى ٦ سبتمبر ١٩٠٨ (انصار السلطتين) .
(١٤) الجريدة ٤٦٤ فى ٢٦ سبتمبر ١٩٠٨
(١٥) الجريدة ٥٣٠ فى ٢٢ نوفمبر ١٩٠٨

الأوبرا ، « وكان موضع التفاته السامي » كما ربط سعد زغلول بين هذه الملحوظة ومسألة تغيير الوزارة وظهور سلطة الخديوى فى تأليف الوزارة الجديدة « حيث التف حول « المؤيد » من كانوا منصرفين عنه خصوصا بعدما شاع وذاع انه كانت له اليد الكبرى فى تعيين بعض النظار » (١٦) ويعد هذا صحيحا اذا ما اخذنا فى اعتبارنا التمهيدات السابقة للجريدة . وان حزب الأمة اراد ان يشارك فى الحكومة حين بدا ان الوفاق قد ابعده عن مركز السلطة ويؤيد ذلك أيضا تغير لهجة الجريدة بالنسبة للسلطة الشرعية ، واختصاص الخديوى للطفى السيد باحسن التفات عند انصرافه من احتفال الجامعة . كما أن اعضاء حزب الأمة قد اخذوا فى التقرب من المعية (١٧) ولكن الخديوى لم يصف تماما للحزب وما لبثت الأمور أن عادت الى سيرتها الطبيعية ، خاصة وقد خيب التشكيل الوزارى (١٩٠٩) آمال الحزب بل لقد أصر الخديوى على ابعاد الموظفين عن الحزب تماما . وأبدى قبوله لاستعفاء قدمه محمد محمود لأن حركة تنقلات المديرين قد تجاهلته لولا تدخل الوكالة وانتهاء المسألة باستبقائه (١٨) وفى يناير سنة ١٩٠٩ ردت الجريدة على الخديوى مؤيدة موقف أحد الاشخاص فى قضية رفعها على الخديوى امام محكمة الاسكندرية ، واثبتت استنكارها لحكم القاضى بعدم قبول الدعوى بناء على انها لم ترفع على ناظر الخاصة ، وذكرت « الجريدة » ان المعية قدمت شكوى الى الحقانية تطلب فيها تاديب المحضر الذى اوصل صحيفة الدعوى الى سمو الأمير ورات ان المحضر ينفذ القانون وتساءلت : وهل فى القانون ما يمنع من اعلان سموه شخصيا ويحتم اختصام ناظر دائرته ؟ كلا . . . اذا صح هذا الخبر فهل يمكن القول بأن القانون محترم فى بلادنا ؟ (١٩) وعندما انعقد مجلس النظار واعترض سعد زغلول على عدم تعيين على ابو الفتوح

---

(١٦) مذكرات سعد زغلول ، ك ٩ ، ص ٤١٤

(١٧) المصدر السابق ، ص ٤٢٣ وحول التفاته الخديوى للطفى السيد :
Alexander, J., The Truth about Egypt, p. 213.

(١٨) المصدر السابق ، ص ٤٣٥ — ٤٤٣ (في ٨ يناير ١٩٠٩) .

(١٩) الجريدة ٥٥٦ فى ٩ يناير ١٩٠٩ (عودة الظلم والاستبداد ، أعلان سمو الجناب العالى في القضايا المدنية) لم نعرف تفاصيل هذه القضية أو صاحبها واسمه على بك رحمى وان كانت المقالة تشير الى انه رفع القضية نتيجة ظلم وقع به من جانب الخاصة الخديوية .

قضايا بالاستئناف مع خلو هذه المحكمة من الاكفاء وعلى تعيين أحدث الرؤساء واصغرهم سنا في الاستئناف ، قال بطريق الخديوى ان نظارة الحقانية رات ذلك (٢٠) ومرة أخرى حاول زعيما الحزب اكتساب ود الخديوى فعند افتتاح الجمعية العمومية في فبراير من عام ١٩٠٩ قبل محمود باشا سليمان يد الخديوى مرتين ظهرا لبطن وهوى على شعراوى لتقبيلها بشدة فانزاح طربوشه حتى كاد أن يسقط لولا أن سنده بيده (٢١) ولكن بغير جدوى ، مما أثار الحزب وجعله يرد عليه بتحريك حوادث الأزهر والقيام بنصرة الازهريين للانتقام منه ، وعندما انتهت حوادث الأزهر ، وصفح الخديوى عن الطلاب توجه بعض افراد الحزب الى المعية للشكر ، وطلب على شعراوى ابلاغ الخديوى « باننا نقسم الا تتكرر حادثة الازهر مرة اخرى » وقد ضاعف ذلك من تأثر الخديوى من حزب الأمة (٢٢) وكان منزل الشيخ مصطفى عبد الرازق خلال الأزمة ، مقرا لتدبير المشاغبات وعندما خوطب فى ذلك قدم استعفاءه من مدرسة القضاء ، فطلب الخديوى على الفور قبول استعفائه فى ١٤ مارس ١٩٠٩ بالرغم من ان الاستعفاء يسهل له المجاهرة بما لا يرضى والاقدام على ما كان يحجم عنه (٢٣) وقد ميز الخديو بين اعضاء مجلس الشورى فى الدعوة للاحتفال بتوديعه عند سفره الى بورسودان ، مما أحدث تنافرا وانقساما بينهم . ويبدو ان الذين تجاهلهم الخديوى هم اعضاء حزب الامة ، وذلك ان على شعراوى فى جلسة ١٤ ابريل (١٩٠٩) طلب الغاء قانون المطبوعات ، وتبعه من لم يدع الى الحفلة وخالفه الذين دعوا اليها فقالوا بوجوب بقائه وكانت الغلبة لهم ثلاثة عشر صوتا فى مقابل عشرة ، وكادوا يرفضون اقتراح محمود سليمان الخاص بطلب المجلس النيابى لولا

---

(٢٠) مذكرات سعد ، ك ١٥ ، ص ٧٧٢ — ٧٧٣ وقد علق سعد على ذلك « تلت هذا ملحوظ أبديته ولكم الرأى فيه » .

(٢١) مذكرات سعد ، ك ٩ ، ص ٥٠٢

(٢٢) المصدر السابق ، ك ١٥ ، ص ٧٨٤ — ٧٨٥ والمعروف ان هذه الحوادث (١٩٠٨ — ١٩٠٩) جاءت بسبب صدور قانون مدرسة القضاء الشرعى اوائل ١٩٠٧ مما القى فى نفوس الازهريين خوفا من مزاحمتها الازهر فى تخريج المرشحين لتولى وظائف القضاء الشرعى

(٢٣) على عبد الرازق : من آثار مصطفى عبد الرازق ، ص ٤٧

أن طلب بعضهم التأجيل فتأجل (٢٤) وقد تشددت الجريدة فى مواقفها من الخديوى فكتب لطفى السيد مقالا بعنوان « عظمة الملوك » بمناسبة خلع السلطان عبد الحميد حين أراد التنكيل بالدستوريين ، ملوحا بأن « ذلك الخبر يزف الينا شيئا من الفرح بغلبة الحق على الباطل وتغلب سلطة الجماعة على سلطة الفرد » (٢٥) وكان بذلك يحذر الخديوى فى غير مواربة وقد فسر سعد زغلول تقديم السيد البكرى استعفاءه من شورى القوانين ، بأنها حيلة دبرت لحمل الأعضاء على الاستعفاء حتى يمكن التخلص من الذين لم ترق للجناب العالى وللحكومة حركاتهم فى هذه الأيام مثل شعراوى ومحمود سليمان (٢٦) ويتصل بذلك افضاء الخديوى الى اسماعيل اباظة ورشدى باشا برغبته فى أن يبحثا عن طريقة لتطهير الحزب الوطنى من الطائشين والانتفاع به فى حمل حزب الأمة على ترك معاداة الخديوى والسير فيما ينفع البلاد (٢٧) وشكوى الخديوى لسعد زغلول من اجتماع فتحى زغلول بلطفى السيد وقوله « انه لا ينبغى ان يعاشره » وعندما أراد سعد اثناء لطفى السيد — بناء على رغبة الخديوى — عن حملته ضد جورست والشكوى من السياسة الحاضرة ، رفض لطفى السيد ذلك وقال انه سيجرى على خطته مهما كانت النتيجة لما رآه من استحالة الانتفاع بالجناب العالى واعوجاج سير أغلب الملتفين حوله (٢٨) .

وخلال بقية عام ١٩٠٩ تستمر حملة الخديوى لتفتيت الحزب سواء بالضغط على مؤيديه من الموظفين — من خلال وظائفهم أو باهداء الرتب والنياشين كعادته مثلما حدث بالنسبة لأحمد عفيفى باشا الذى اندفع فى نقد

---

(٢٤) مذكرات سعد زغلول ، ك ١٥ ، ص ٨٠٦ — ٨٠٨ وهكذا كان موقف أعيان الحزب من قانون المطبوعات في مجلس الشورى .

(٢٥) انظر الجريدة ٦٤٩ في ٢٩ ابريل (عظمة الملوك) وكذلك ٦٥٠ في اول مايو ١٩٠٩ « ارادة الأمة فوق التاج » .

(٢٦) مذكرات سعد زغلول ، ك ١٥ ، ص ٨٢٣ — ٨٢٤

(٢٧) المصدر السابق ؛ ك ١٧ ، ص ٨٧٠

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٨٧٨

الجريدة بعد أن خرج عليها ، ولعل لمنحه الباشوية اثرا فى ذلك مما كان قد منحها بعد ، كما اغرى بعض الشركاء برفع دعوى يطلب تصفية شركة الجريدة ، حيث قام محمود الاتربى وعثمان سليط بمقاضاتها وتولى الدفاع عنها عبد العزيز فهمى الذى اودع خزينة المحكمة المبلغ الذى اكتتبه لما رفضا استلامه ، ولم يكن من الممكن أن يصرح باتهام الخديوى أمام هيئة قضائية حتى لو امتلك الدليل (٢٩) ومنذ ذلك العهد انقطع الحبل الرفيع الذى كان يربط القصر بحزب الأمة وبالجريدة واستمر الحزب فى سياسته (٣٠) لكن لا تلبث ان تظهر اصابع الخديوى خلف قضية حسن جمجوم التى رفعها مطالبا بتصفية الجريدة والتى تبنتها « المؤيد » وكان من اهم أسبابها — كما قال صاحب الدعوة — انه وبعض اصدقائه ضجروا من تتابع الطعن فى صاحب السلطة الشرعية ... وانهم قرروا تشكيل وفد من الساخطين على ذلك لمقابلة الجناب العالى ، وعرض اخلاصهم عليه ، ولما عيرهم مدير الجريدة باسترضاء الجناب العالى ، تساءل جمجوم « اى عار فى ذلك أيريدون ان يطعنوا عليه اليوم ويبادر الى منحهم الرتب والنياشين » (٣١) كما تبدو نفس الأصابع خلف القضية التى رفعها خمسة وعشرون من أعضاء شركة الجريدة فى نفس الشهر مطالبين بتصفيتها ، وقد دفعت الخاصة الخديوية مصاريف الدعوى وانعم على المدعين بالرتب والنياشين ، وكان المحامى الذى رفع الدعوى هو محامى الخاصة ، فكتب لطفى السيد مذكرة بذلك وسلمها الى المسيو جرين المحامى عن الشركة فتدخل الأمير حسين كامل لديهم حتى تأجلت الدعوى الى أجل غير مسمى (٣٢) .

---

(٢٩) حسين فوزى النجار ، الجريدة تاريخ وفن ، دكتوراه غير منشورة ص ١٦٠ ، ١٦٣

(٣٠) مذكرات ابراهيم الهلباوى ، ص ٨٥

(٣١) المؤيد ٥٧٦٩ فى ١٩ مايو ١٩٠٩ . وقد ذكر جمجوم أن الجريدة قد طبعت عددا به قصيدة تهاجم الخديوى ولكن وفد الساخطين أوقفوا الطبع وجمعوا ما بأيدى الموزعين ثم اعادوا طبعها بعد رفع القصيدة منها .

(٣٢) أحمد لطفى السيد : قصة حياتى ، ص ٨٩ — ٩٠ حيث يذكر خطأ أن القضية رفعت عام ١٩١٠ وان كانت قد ورد في الجريدة عدد ٦٥٤ في ٥ مايو ١٩٠٩

وكان الخديوى لا يحسب حسابا الا لكتاب الجريدة الذين دابوا على غمزه ، والذين هم فى حل من قيود الوظيفة ومن ثم كانت محاولاته للتأثير عليهم عن طريق أصدقائهم من ذوى المناصب مثلما حاول التأثير على لطفى السيد عن طريق سعد زغلول ، وعندما فكر الخديوى فى الزواج من احدى وصيفاته التى أعلنت اسلامها كان أخشى ما يخشاه على يوسف هو ان ذلك يفتح بابا للجرائد المعادية للخديوى مثل « الجريدة » للحط من مقامه والتنغيص عليه (٣٣) وكان الخديوى يذكى نار الحرب المستعرة بين الجريدة والمؤيد بين الحين والآخر ، وحتى نهاية عام ١٩٠٩ كان الموقف يزداد حدة بالفعل حتى أنه عندما سافر الخديوى للحج فى ديسمبر عام ١٩٠٩ تخلف عن توديعه من اعضاء الشورى والجمعية العمومية على شعراوى وعبد الرحيم الدمرداش ومحمود عبد الغفار ومحمود سليمان وان كان الأخير قد اعتذر أيام أخوانهم بالمرض « سترا لكسوفه » (٣٤) .

أثرت هذه الانشقاقات التى أحدثها العداء مع الخديوى ، فى الحزب تأثيرا عميقا من حيث الكم والكيف ، خاصته اذا عرفنا أن معظم [illegible] اعضاء فى جمعية الحزب العمومية ، كما أن الوطنيين وهم [illegible] يحبون الحزب ويمثلون ثقلا اجتماعيا للحزب وأن يكن بتسلل غير مباشر ، ان لم يكن الحزب يراجع نفسه ، خاصة وقد كانت [illegible] الاستقالات تدور حول سيطرتهم الجريدة على السلطة الشرعية ، فى الوقت الذى كانت هناك حركة تعيينات وترقيات فى مناصب الادارة ، الأمر الذى قد يتيح للخديوى فرصة جديدة لضرب ذوى المناصب من ابناء اعيان حزب الأمة وعلى ذلك بدأت « الجريدة » تراجع موقفها وقد شرعت فى ذلك فعلا منذ بداية عام ١٩١٠ ، بانشاء المقالات والقصائد فى مديح الخديوى واستقباله من رحلة الحج ، واسهبت فى وصف رحلة عودته ونشر برقيات تهنئته (٣٥) ولكن الخديوى لم يتخلص من عدائه

---

(٣٣) مذكرات سعد زغلول ، ك ١٣ ، ص ٧١٢ — ٧١٣ .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٦٨٥

(٣٥) الجريدة ٨٧٣ فى ٢٥ يناير ١٩١٠ ، حجا مبرورا لاسماعيل صبرى ، ٨٧٤ فى ٢٦ يناير ١٩١٠ رجاء الدستور بعد الحج المبرور — قصيدة لطه حسين .

كلية وان استحال الى نوع من الامتعاض من الحزب ، وقد ابان عن امتعاضه هذا حين عرضت عليه حركة المديرين ووجد فيها محمد محمود محافظا للقنال ، فكاد يسقط هذا التعيين ولكنه عدل بعد أن أظهر عدم الارتياح (٣٦) .

وحتى أواخر عام ١٩١٠ لم تكن هنـــاك عوامل تؤدى الى تقارب من نوع ما بين الحزب والخديوى ، فعادت الجريدة الى التلميح للخديوى من بعيد متخذة من الثورة البرتغالية « درسا وعبرة » — فى مقال يحمل هـــذا العنوان — بأن كل ملك لا يحترم ارادة الأمة وينقاد الى حاشيته يجنى على نفسه « وذكرت أن الملك المخلوع كان معتمدا على الانجليز يهـــدد خصومه بمداخلتهم (٣٧) وكان ذلك تلميحا أكثر منه تلويحا فقد كانت الجريدة بالفعل تتحين الفرصة للتقرب من الخديوى دون اراقة ماء الوجه ، وقد واتتها فرصة ذهبية عندما لم يحسن الصدر الأعظم استقبال الخديوى فى تركيا فانقلبت الجريدة « مؤيدا ثانيا » وكتبت ان مركز خديوى مصر هو اسمى من مركز الصدر الأعظم وليست تابعية الخديوى للسلطان بمقللة شيئا من مقام الخديوى واننا اذا انتقدنا اعمال خديوينا داخل مصر فانه متى خرج من مصر حاملا فوق رأسه شرف الأمة المصرية لا نستطيع ان نقف جامدين لعدم الرعاية التى تقع لشخصه » (٣٨) وكان ذلك مقدمة لصلح بين الخديوى ولطفى السيد ، وازاء هذا الموقف ، واظهارهم للسلطان ان الخديوى محبوب من شعبه ، استجاب الخديوى لذلك التقرب ، وطالعتنا الجريدة بخبر عن مقابلة سياسية جرت بين لطفى والخديوى ، ولمـــا غمزت صـــحيفة العلم — صـــحيفة الحزب الوطنى — ذلك بأن حزب الأمة قد تنازل عن مبدأ من مبادئه الأساسية ، ردت الجريدة بأن المقابلة لم تستتبع تنازلا عن مبدأ من مبادىء الحزب الأساسية ، وانه ليس له بواحدة من السلطتين اتصال خاص الا ما يقتضيه السعي لتحقيق

---

(٣٦) مذكرات سعد زغلول ، ك ١٨ ، ٩ ، ص ٩٢٩

(٣٧) الجريدة ١٠٩١ في ١٢ أكتوبر ١٩١٠ (درس وعبرة للبستانى) .

(٣٨) الجريدة ١٠٩٦ في ١٨ أكتوبر ١٩١٠ (خديوى مصر للطفى السيد) كما أن هـــذا الموقف يتسق وموقف لطفى السيد وحزب الامة من السيادة العثمانية على مصر وهو ما سيتضح أكثر فى الفصل الخاص بموقف حزب الأمة من السيادة العثمانية على مصر .

سلطة الأمة ، وان من السهل جدا التوفيق بين الأدب السياسى وبين المبادىء الجافة (٣٩) .

استمر الموقف الجديد خلال عام ١٩١١ ولعل ذلك راجع الى انتهاء سياسة الوفاق بين السلطتين وبالتالى فقدان الخديوى حرية حركته التى مكنته من اظهار عدائه للحزب بشكل مؤثر ، ثم كان مجىء كتشنر العسكرى الذى امسك بزمام الأمور كلها فى قبضته الحديدية . مما ادى الى ازدياد اندفاع الحزب نحو الخديوى ، الذى رحب بذلك فى مواجهة تشدد كتشنر . وتتضح ملامح هذا التقارب عندما ردت الجريدة على كلمة لاسماعيل اباظة واوضحت انه ليس للخديوى عدو ولا مناوىء فى مصر وانه ان كان فى حاجة الى الدفاع فكل اقلام مصر دفاع عن شخصه الكريم وعرشه المصرى ... صرحنا ونصرح بأننا مخلصون لسمو الأمير والعرش الخديوى .. اننا نقول بسلطة الأمة وقد قال بها سمو الأمير عام ١٩٠٧ ، لمراسل الطان اذ قال بالدستور والدستور هو سلطة الأمة » (٤٠) وهكذا — وللمرة الأولى — قرنت الجريدة بين سلطة الأمة والسلطة الخديوية ... وعلقت على حديث الخديوى لمراسل الفيجارو « بان الأمير دستورى محب للدستور » ونقلت نصه فى افتتاحيتها مختتمة ذلك بتعليق كل الآمال على سعى الخديوى نحو الدستور (٤١) . ودشنت هذه السياسة بقصيدة عنوانها « عريضة الاخلاص والصراحة » الى الخديوى (٤٢) لكننا نلاحظ ان صلحهم مع الخديوى قائم اساسا على احساسهم بضعفه وبحاجته اليهم ، فلطفى السيد فى حديثه مع

---

(٣٩) الجريدة ١١٤٢ في ١٧ ديسمبر ١٩١٠ (مقابلة سياسية) .

(٤٠) الجريدة ١٢٩٠ فى ١١ يونيو ١٩١١ (تقرير محاضرة اباظة باشا) ، ١٢٩٤ فى ١٥ مايو ١٩١١ (للمصلحة العامة) .

(٤١) الجريدة ١٣١٧ في ١٢ يوليو ١٩١١

(٤٢) الجريدة ١٦٥٤ في ١٧ اغسطس ١٩١٢ — ونيها :

عباس لها شبير ساعة
تفن البلاد بنعمة الايسار
لازلت سيدنا على رغم العدا
ابدا بعين الواحد القهار
شبير ابراهيم رمزى .

مراسل الاجبشن جازيت ، قد اكد انهم اكثر رعايا الأمير ولاء ولم ينس أن يوضح ان مراميهم الدستورية لا يمكن الا ان تطابق مرامى سموه ، ولكنهم مع ذلك لا يحنون الركب تزلفا وأملا فى استجلاب رضى الأمير ، لانهم اهل سمعة (٤٣) ويبدو منطق هذا التقارب اكثر وضوحا حين يقع لطفى فى التناقض الذى يفسره قوله « لا انكر ان الخديوى لا حول له فى منح الدستور . والواقع اننا لم نسمع بملك واحد قيد نفسه بالدستور من تلقاء اختياره » (٤٤) .

وتشهد الفترة التالية فتورا فى علاقة الحزب بالخديوى ، واستعدادا من جانبه لخوض انتخابات مجالس المديريات ، من ثم يتجاهل لطفى السيد صلحه مع الخديوى حين يحاول سعد زغلول ان يحادثه فى أمره ، ويبدو سخطه على الخديوى والنظار نتيجة تدخلهم وايقاف الانتخابات (٤٥) ولما كان الخديوى يعلم أن كتشنر يدبر فى الخفاء أمر خلعه ويرشح للخديوية أميرا من أمراء بيت حليم . كان عليه أن يحتاط لذلك من جانب الرأى العام ، ومن ثم قرر ان يطوف بالوجه البحرى ويوثق صلته بالاعيان ، الذين احسنوا استقباله فى قصورهم ، وقد اعدت هذه الرحلة اعدادا ضخما ووضع لها برنامج حافل وتمت بالفعل فى الفترة من ٢٨ ابريل حتى ١٣ مايو ١٩١٤ (٤٦) وقد اسهبت الجريدة فى وصف استقبالات الخديوى وملأت صفحاتها بالاشادة به ووصفت السرادق الذى اقامه السيد بك ابو على وانجاله لاستقباله ، وكان ضمن الذين تشرفوا بلثم يد سموه حضرة حسين افندى هيكل (٤٧) كما كان لطفى السيد فى استقباله « بناء على رغبة أبوية » (٤٨) .

وزاد من اقبال اعضاء حزب الأمة على الخديوى ، خاصة وقد تكلم مع لطفى السيد بأنه برم بوزارة محمد سعيد ويريد تغييرها ، واكثر من ذلك انه

---

(٤٣) الجريدة ١٣٧٥ في ١٩ سبتمبر ١٩١١

(٤٤) المصدر السابق ، نفس الحديث

(٤٥) مذكرات سعد زغلول ، ك ٢٣ ، ص ٢١٠٧

(٤٦) انظر : هيكل : مذكرات فى السياسة ، ج ١ ، ص ٥٨ ، اسماعيل صدقى مذكراتى، ص ١٥ ، احمد شفيق : مذكراتى في نصف قرن ، ج ٢ ، م ٢ ص ٣١٢

(٤٧) الجريدة ٢١٧٢ في ٢ مايو ١٩١٤ (والد الدكتور محمد حسين هيكل) .

(٤٨) هيكل : مذكرات في السياسة ، ج ١ ، ص ٥٨

أخذ رأى لطفى فى الرجال الذين يصلحون لوزارة جديدة . كما طلب من السيد بك ابو على أن يحضر ابنه لطفى السيد معه الى قصره وطلب الى لطفى ان يزوره كل سبت وقد فعل (٤٩) وقد رد لطفى على هذا الانعطاف بأن تولى جملة صحافية للمطالبة بجزيرة طاشيوز لمصر مستعينا بالانجليز ليحموا املاك مصر من اليونان ارضاء للخديوى ، وما كف عن حملته الا عندما طلب اليه الخديوى ذلك لانه آثر أن يستبدل بالجزيرة اطيانا فى الاناضول (٥٠) وكذلك ادب الخديوى للأعيان الذين زارهم مأدبة خديوية ، وكان من الملتفين حول المائدة الخديوية السيد بك ابو على ونجله احمد بك لطفى السيد (٥١) وحين وقعت حادثة الاعتداء على الخديوى فى الاستانة سنة ١٩١٤ كانت الجريدة اولى الصحف التى استنكرت الحادث ونشرت برقيات التهنئة بسلامته ، وعبرت عن مشاعرها نحو الامير بالعديد من القصائد والمقالات (٥٢) واستمرت العلاقة على هذا النحو حتى تم عزل الخديوى (١٩١٤) .

يرجع اذن تغير العلاقات بين الحزب والخديوى اساسا الى علاقة الخديوى بممثلى الاحتلال وان غلبت صفة العداء على هذه العلاقة . منذ البداية وقف الخديوى موقفا عدائيا من جماعة الجريدة . فى الوقت الذى لم ينس فيه تأييد كرومر — عدوه — لهم ، وقد قابلوا هذا العداء بالتجاهل والانكار ، حيث لم تكن سياسة الوفاق قد استقرت بعد ، ثم اخذ عداءه لهم مسلكا عمليا ، بتهديد الموظفين منهم بالنفى والتشريد ، كما اغرى البعض بالرتب والنياشين ، واستخدم المؤيد فى اضخم حملة لتفتيت الحزب ، مستفيدا فى ذلك بما اتاحته له سياسة الوفاق ، وبالمثل يبدو تقرب الحزب من الخديوى والتمسح بأعتابه حين بدا أن جورست قد تجاهله كلية وان لم يصف الخديوى للحزب تماما عندما انتهت سياسة الوفاق ، وحلت محلها سياسة الخلاف .

---

(٤٩) أحمد لطفى السيد : قصة حياتى ، ص ١٤١ — ١٤٢

(٥٠) المصدر السابق ، ص ١٤٢

(٥١) الجريدة ٢١٨٦ فى ١٨ مايو ١٩١٤ ، وتذكر الجريدة اعيان عائلات عبد الغفار وعمار وابو الفتوح وغيرهم .

(٥٢) أنظر الجريدة ٢٢٤٥ فى ٢٦ يوليو ، ٢٢٤٦ فى ٢٧ يوليو ١٩١٤ والاعداد التالية .

أو الضراع مع كتشنر ، مما جعل الخديوى يقبل يدا مدها له الحزب ، الذى رغم احتياطه بتخلفه امام ممثل الاحتلال ، استمر فى تقربه خاصة وقد تحدث الخديوى مع لطفى باعتزامه تغيير الوزارة وظهر ان العداء له قد الحق بالحزب ضررا بليغا وافقده قطاعا هاما من قطاعاته ، يضاف لذلك كله ان السنوات التى تلت عام ١٩١١ بعد مجىء كتشنر قد حدت من قدرة الخديوى على الحركة مما اثر بدوره على ركود علاقته بالاحزاب كما ان حزب الامة قد بدا الضعف يدب فى كيانه خلال هذه السنوات ، بما لم يسمح لعلاقته بالقوى السياسية — ومنها الخديوى — ان تكون حيوية وزاخرة .

* * *

اما علاقة حزب الامة بالاحتلال البريطانى فسوف نحاول ابرازها من زوايا ثلاث : اولها : موقف الحزب من معتمدى بريطانيا لدى مصر ، وثانيهما : العلاقة برجال الوكالة البريطانية ، واخيرا : موقف الحزب من مسألة الاحتلال والجلاء . وينبغى ان نفرق بين علاقة الحزب بالاحتلال او بسياسته كقضية عامة ، وبين علاقته بممثلى هذا الاحتلال سواء فى شخص المعتمد او مستشاريه او جهاز الوكالة البريطانية ككل . فالمسألة الاولى تعنى قبول الاحتلال كقضية واقعة مسلم بها او عدم قبوله ، والايمان بسياسته او رفضها ، وبالتالى التعامل معه من منطق مصلحة ضيقة خاصة او من منطق المصلحة الوطنية العامة ، بينما المسالة الثانية تعنى العلاقة الخاصة او الشخصية بما تحمله من ارتباط سيكولوجى برجل مثل كرومر مثلا او مثل كتشنر فالاخير شخص مكروه فى كل الاحوال ، اما الاول فله عند جماعة الحزب رصيد قديم بينما قضية الاحتلال البريطانى لمصر حقيقة واقعة لا يغير منها تبدل هذه العلاقة الخاصة ، اللهم الا اذا كان على هذا الممثل للاحتلال ان يتخذ اجراء يضر بمصلحتهم او وضعهم الطبقى ، حينئذ ينعكس هذا الاجراء على موقفهم من الاحتلال بشكل عام ، فلو ان كرومر ، وهو على ما ذكرنا من العلاقة بهم اتخذ عدة اجراءات اقتصادية واجتماعية على حسابهم ، لنافسوا رجال الحزب الوطنى فى عدائهم لشخصه ، وللاحتلال

بزيته" ، وعلى ذلك ينبغي الا يفارق اذهاننا معيار « المصلحة الطبقية لكبار الملاك » ونحن نحاول تتبع وتحليل نوعية هذه العلاقة سواء بشكل خاص يتعلق بممثلي الاحتلال أو بشكل عام يتمثل في وضع الاحتلال وسياساته .

ثمة نقطة اخرى تتعلق بالتعبير عن الموقف السياسي من الاحتلال فالمعروف ان الموظفين المنتمين للحزب كانوا اعضاء في جهاز الدولة الادارى الذى يسيطر عليه الاحتلال سيطرة تكاد تكون تامة ، كما جرى العرف حينئذ بعدم اشتغالهم بالسياسة ، من ثم يجب ابعادهم عن مسئولية التعبير عن الحزب وهو ما حدث بالفعل ، فلم نعثر على مقال سياسي كتبه واحد من هؤلاء طوال فترة حياة الحزب ، اما بالنسبة للأعيان فلم تتح لهم ثقافتهم والدخول في معارك جدلية ، كما انهم قنعوا بدورهم في المجلسين النيابيين ، واللذين لم يتعرضا لمثل هذه المواقف بشكل مباشر وفعال ، من ثم تركوا الأمر لكتاب الجريدة ، الذين وقعت عليهم مسئولية التعبير عن الموقف السياسي من الاحتلال .

واذا جاز لنا ان نؤمن بأن يد كرومر هي التي صنعت هذا الحزب فمعنى هذا ان على الحزب ان يموت عشية رحيله او ان يغير جلده بأسرع ما يمكن ، لكنه لم يمت ، وكان من الممكن الا يعلن عن نفسه بعد عدة شهور ، على الاقل بهذه السرعة ، ورغم ما يقال عن حقيقة العلاقة مع كرومر فلا جدال في ان ثمة تطورات اقتصادية واجتماعية وفكرية ادت بشكل او بآخر الى ظهور طبقة الأعيان ومثقفيها على سطح الحياة المصرية ، هيأت الحوادث لها ان تلعب دورها وخلقت لها صلاتها برجال الاحتلال ، وتطرف الآخرين في عداء او صداقة الاحتلال ، وذلك التطرف — بشقيه — الذى يتنافى مع مصالحها النامية ، المناخ الجديد للقيام بدورها ، فكان عليها ان تلعب دورها في كل الظروف والأحوال حتى لو رحل كرومر .

لم تكد تمضي على صدور جريدة الحزب سوى تسعة عشر يوما حتى

ابرق كرومر الى وزير خارجية بلاده باستقالته(٥٣) وبذلك واجهت الجريدة وحزبها موقفا جديدا لم تكن قد استعدت له ، حتى ان بعض المصادر تذكر ان الحزب قد غير خطته فور رحيل كرومر (٥٤) ويبدو لنا ان الجريدة حتى اعلان كرومر لاستعفائه فى ١٣ ابريل ١٩٠٧ لم تكن تدرى بذلك ، حتى انها لم تقتصد فى مديحه كما لم تنتقد شيئا من سياساته ، وانما كانت تسمى الاحتلال « سلطة الارشاد »(٥٥) واثنت عليه — من منطق المصلحة — انه ممن نبهوا الامة فى بوادر الأزمة المالية بما كتبه فى تقريره عن عام ١٩٠٦ ونصحها بالتبصر وعدم التهافت فى الاشتغال بالمضاربات مع الشركات(٥٦) ، وعندما صدر تقريره الأخير ، لم يسعها الا تلخيصه على ما به من هجوم على الحركة الوطنية ، واتهامها بالعداوة الجنسية والدينية وتشككه فى تمثيل الحزب الوطنى لرغائب الشعب الحقيقية ، واقتراحه انشاء مجلس شورى بمختلط (٥٧) وكلها امور اهتمت الجريدة بمعالجتها والتعليق عليها فيما بعد ، لكنها وان كانت قد هاجمت الاقتراح الأخير ، الا انها لم تعلق على هذا التقرير بشىء فى حينه ، ذلك انها لم تكن قد عرفت شيئا عن استعفاء اللورد ، وهذا بخلاف بقية الجرائد وبخلاف ما عملته ازاء تقارير السنوات التالية .

وحالما اشيع خبر الاستعفاء بادرت الجريدة بنقل ما اعلنه جراى على مجلس النواب الانجليزى من ان كرومر « بعد الاستشارة الطبية راى ان لابد له من الاستعفاء بسبب صحته » مبنية بذلك وجهة النظر الانجليزية ، وبغض النظر ان كان ذلك صحيحا — وقتها — ام غير صحيح كما نشرت برقية كرومر التى ذكر فيها انه « يهمه كثيرا جدا ان يعلم الاسباب التى

---

(٥٣) المسدى : دنشواى ، ص ١٧٩ وثيقة ٢٨ فى ٢٨ مارس ١٩٠٧ من كرومر الى جراى: « يغلب أن سيصلك منى تلغرافا اطلب اليك فيه أن تقبل استقالتى وذلك قبل ان يصلك هذا الخطاب .. » .

(٥٤) الجازت ، نقلا عن المؤيد فى ٢٥ يناير ١٩٠٨ وعللت ذلك بانه ربما كانت غايتهم مزاحمة مصطفى كامل على الشهرة ، وآدمز : الاسلام والتجديد ، ص ٢١٥

(٥٥) الجريدة ١٩ فى ٣٠ مارس ١٩٠٧ (ماذا يجب ؟) .

(٥٦) العدد ١٢ فى ٢١ مارس ١٩٠٧ (الشركات والمضاربات) .

(٥٧) العدد ٢٤ فى ٤ ابريل ١٩٠٧

حملتنى على اتخاذ هذه الخطة انما هى أسباب صحية لا غير وان ليس لها اى علاقة بأسباب سياسية » ثم ترجمت للورد وعلقت « بأننا الآن امام وداع شيخ كبير المقام لأمته بما يجب عليه من صادق الخدمة ، نقول ان العارفين بصفاته الشخصية يروون عنه حب الحق والعدل وحسن المقابلة والمعاملة ... »(٥٨) ولعل الجريدة بتبينها لوجهة النظر هذه قد تجاهلت ضغط الاحداث على كرومر ، الذى افقده توازنه وقدرته على الاستمرار فى منصبه ، والذى حدا بحكومته الى المسارعة بقبول استعفائه خاصة ومصر كانت تغلى اثر دنشواى التى هزت كيان السياسة البريطانية (٥٩) وخاصة كذلك وأن تأكيد كرومر بأن استقالته لاسباب صحية ، كان من قبيل تأكيد « المريب » فلا شك ان الاستعفاء كان بسبب اعتلال صحته التى اضعفتها الظروف السياسية (٦٠) بينما كانت الجريدة ترجو له الشفاء بعد راحة طويلة ، فان كل ما يشكو منه ضعف شديد فى الاعصاب (٦١) ، ولما استنكرت « اللواء » موقف الجريدة تساءلت هذه : واى علاقة بين السياسة ووداع رجل كبير اصبح فى مصر ضيفا لا يملك من سلطته شيئا ولا رابطة بينه وبين من يتظنن اللواء فى مبدئهم الا العواطف الشخصية (٦٢) وفى قائمة مودعى كرومر برزت الى جانب اعضاء الوزارة وكبار الشخصيات الاجنبية فى مصر اسماء محمود سليمان ، والدمرداش ، وقاسم امين ، وخالد لطفى ، وادريس راغب ، كما ابدى شعراوى استعداده لحضور حفل الوداع (٦٣) بينما نفر جميع الوطنيين من ذلك وكانت جرائد الحزب الوطنى تحرض الناس على الابتعاد عن هذه المظاهرة (٦٤) .

---

(٥٨) الجريدة ٢١ في ١٢ ابريل ١٩٠٧

(٥٩) انظر : Marlow, J. Anglo — Egyptian, p. 168, & Elgood The Transit of Egypt, p. 146.

(٦٠) مذكرات سعد زغلول ، ك ٦ ، ص ٢٤٩ .

(٦١) الجريدة ٣٣ فى ١٦ ابريل ١٩٠٧ .

(٦٢) الجريدة ٣٥ في ١٨ ابريل ١٩٠٧

(٦٣) الجريدة ٤٣ في ٢٩ ابريل ١٩٠٧ ، مذكرات سعد زغلول ، كراسة (٦) ص ٢٥٢

(٦٤) مذكرات سعد زغلول ، ك ٦ ، ص ٢٥٠ (ولم يحتج على الاشتراك في هذا الاحتفال من مؤسسى الجريدة سوى أحمد بجيى باشا) .

كان على الجريدة أن تبرر موقفها بالنسبة للحركة الوطنية فانشأت تنادى بأن سياسة معاندة الاحتلال عقيمة ، اذ كيف يقبل المعاند من الميادئ حسابا على اعماله ، بل كيف يرجو من العدو عدوه اصلاحا لحاله ، فلم يبق الا سياسة المسالمة والمحاسنة المقرونة بالمحاسبة (٦٥) ، وفى هذا من التناقض ما فيه ، فكيف يقبل العدو محاسبة من عدوه أو كيف تقبل سلطات الاحتلال محاسبة المصريين لها وهم اعداؤها بنطق الجريدة ؟ ورات الجريدة فى هجوم الصحف الوطنية على « العقلاء من كبراء الأمة » وهم يودعون كرومر ، هجوما على حرية هؤلاء من جرائد تدافع عن الحرية (٦٦) ، وقد احسنت الجريدة وداع اللورد كما احسنت مجاملته لكنه اعلن فى خطبة وداعه ، أن الاحتلال باق الى ما شاء الله . ووصف المصريين بأنهم شعب من العميان ، واهان مصر اهانات لم تقترفها الصحافة الوطنية ، فماذا كان رد الجريدة ؟ تمنت لو ان اللورد مال الى عاطفة التوديع فيذكر عن الأمة المصرية شيئا من الخير ، ولكنه عمد الى النقيض ، ولم تر فى تبشير اللورد ببقاء الاحتلال الا سوء مجاملة « لو قال بأنه باق حتى تبلغ الأمة حكم نفسها بنفسها لكان ذلك ادعى الى المجاملة اللائقة »(٦٧) ، وظلت الجريدة تنادى بالمحاسنة ، وان كانت هذه المرة قد دعت الاحتلال ذاته بمحاسنة الأمة حتى تعترف له بجميل (٦٨) وفى مقال طويل حللت سياسة كرومر تحليلا نقديا تحت عنوان « لورد كرومر أمام التاريخ » قسمت فيه اعماله الى قسمين قسم اقتصادى مالى ، وقسم سياسى ، اعترفت له فى القسم الأول بالفضل الكبير وقدمت له الشكر الجزيل ، فى حين كان كرومر يبغى بالاجراءات المالية صالح دولته من ناحية مضمون هذه الاجراءات ، أما من الناحية الشكلية

---

(٦٥) الجريدة ٤٤ فى ٣٠ ابريل ١٩٠٧ (واستشهدت بقول حافظ : « حقيق بتشييع المحبين والعدا ») .

(٦٦) الجريدة ٤٧ فى ٤ مايو ١٩٠٧ (ورددت قول الشاعر) :

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا

(٦٧) الجريدة ٤٩ فى ٧ مايو ١٩٠٧ ، وقد نشرت الجريدة هذا التعليق الصغير فى باب يومى بعنوان « اخبار اليوم » ولم تنشره فى صدر صفحاتها كالعادة .

(٦٨) الجريدة ٢١٤ فى ١٩ نوفمبر ١٩٠٧ (حاشوتا) .

فكان يهمه اقناع الدول الاوربية بأن مصر فى سبيلها الى تسديد ديونها ، كما كان يبغى من ناحية أخرى أن يبدو فى عين المصريين فى ثوب المصلح الاوربى المنشود وهو ما أشادت الجريدة به فعلا ، كما ركزت على الجانب الذى يهم رجالها بشكل يحمل معنى الاعتراف بالجميل . أما الجانب السياسى فقد رأت ان اللورد « كان مجاهدا يستنبط فى كل زمن وسيلة جديدة لإرساخ قدم دولة فى وادى النيل والنتيجة اننا لو نظرنا اليه بعين مصرى فلا يمكننا أن نصوغ له شيئا من الثناء فانه حرم مصر حياة سياسية تطمح لها كل امة حية » لكنها وهى تبدو منتقدة لسياسته ترى انه كان بوسعه ان يحصل لدولته على أكثر الفوائد التى حصل عليها لو انه صرف همه أيضا فى كسب ولاء المصريين الذين وصف نفسه بأنه صديقهم ... »(٦٩) .

واذا جاز لنا ان نعترف ، مثل لطفى السيد ، انه خدم بلاده دائما ، فهل لا يتناسب ذلك تناسبا عكسيا مع خدمته لمصر ، أم انه ليس هنـــاك تعارض بين مصلحتى بريطانيا ومصر ، حتى أن اللورد بتعاونه مع أصدقائه المصريين يستطيع ان يحصل لبلاده على فوائد أكثر ؟ !!

وعندما أصدر كرومر كتابه « مصر الحديثة » تناولته الجريدة بالتلخيص من ٥ الى ٩ مارس ١٩٠٨ ثم ازمعت الرد عليه فى شـــكل كتاب بعنوان « الانكليز فى مصر » لبيان خطته وبيان سياسة الاحتلال فى مصر والسودان ، ووعدت بترجمته الى الانجليزية وتوزيعه فى أوربا ، ولكنها لم تفعل أكثر من كتابة مقدمته وخطته (٧٠) . واذا أخذنا فى الاعتبار ان الحزب فقد الأمل تماما فى عودة كرومر مرة أخرى وان بعضه شرع فى كتابة عريضة لانجلترا بطلب ارجاعه (٧١) واذا عرفنا ايضا ان سياسة الوفاق (عباس ـــ جورست) ،

---

(٦٩) الجريدة ٢١ فى ١٣ أبريل ١٩٠٧ . ولطفى السيد : صفحات مطوية ، ص ٧١ ، ومذكرات لطفى السيد بالمحور ١٣٥٣ فى ٢٥ سبتمبر ١٩٥٠ حيث نعته « بالسياسى العظيم » .

(٧٠) الجريدة ٣٢٤ فى ١٤ أبريل ١٩٠٨ (الانكليز فى مصر) .

(٧١) مذكرات سعد زغلول ، ك ١٥ ، ص ٨١٧ (... وان جورست قد علم بذلك فتغيرت حاله) ولم نعثر على مصدر آخر يؤيد هذه المسألة .

قد بدأت ترسخ ، أمكننا أن نعرف لماذا بدأت الجريدة حملتها على كتاب كرومر ، برغم سلبية النقـد وهزاله ثم توقفه بعد مقال واحد ، وكذلك احتداد لهجتها ، ووقوفها موقفـا انتقاديا من اللورد كرومر وسياسته ، فذكرت انه كان يتدخل فى اصغر الاشياء حتى تعيين مأموري المراكز (٧٢) ، وفى خطبة لطفى السيد بنادي الحزب (١٩٠٨) ذكر أنه كان يسير على ضرب من الاستئثار بالسلطة تقتضيه مصلحة الاستعمار ، انماء فى الحركة الاقتصادية يأمن بها الأوربيون على مصالحهم فلا يحركون ساكنا فى المسألة المصرية ، وهكذا فسر لطفى السيد اخيرا اصلاحات كرومر الاقتصادية ووصف سياسة اللورد فى النهاية بأن من جرائها القضاء على كل رجاء مصرى فى الاستقلال (٧٣) وعندما حمل كرومر فى مجلس اللوردات فى يوليو عـام ١٩٠٨ على الرأى العام فى مصر رد عليه لطفى السيد بمقال ذكر فيه أن اللورد كفانا مؤونة اثبات سـوء نية الانكليز ، بالتعليم العـام فى مصر ، وتسـاءل : هل حملت الصحـافة على الانكليز بشىء لم يعترف به لورد كرومر ؟ (٧٤) .

وهكذا تغير موقف الجريدة ، وللمرة الأولى ، من كرومر وسياسته ، بعد رحيله والتأكد من انه لن يعود وبعد ان بدا أن سياسة الوفاق قد اخذت سبيلها الى النجـاح ، فهاجمت رجلا لم يعد فى السلطة ، حيث لم يعـد لانتقادها أية قيمة ، وحيث لم يعد لسياسة المحاسنة قيمة ، وحين انقطع بينه وبين مصر نسب السياسـة .

* * *

(٧٢) الجريدة ٢٣٠ في ٨ أبريل ١٩٠٨ ولطفى السيد : صفحات مطوية ، ص ١٢٥ ولم يكن لطفى وحده هو الذى تولى الرد على كرومر فقد كتب مثلا يوسف البستانى ردا على مسألة كتابة المصريين (عدد ٢١٥ في ٢٢ مارس ١٩٠٨) وابراهيم رمزى حول بطلان راى كرومر في الاسلام (٢٠٩ في ١٥ مارس سنة ١٩٠٨) .

(٧٣) الجريدة ٢٦٢ في ١٧ مايو ١٩٠٨ (الحالة الحاضرة) .

(٧٤) لطفى السيد : مبادىء فى السياسة ، ص ٩٧ — ٩٨ . والجريدة ٤٠٨ في ١١ يوليو ١٩٠٨ والعدد التالى (الصحافة والرأى العام) حول الهجوم على سياسة كرومر .

استشير كرومر فيمن يصلح ان يكون خلفه فاشار بتعيين جورست ، لكن بتم ما شرع فيه ، ووصفه بانه « ذكى نبيه ، متشرب من مبادئى ومطلع على أحوال مصر »(٧٥) وكان كرومر كان يتوقع ما سوف تثيره خطبة وداعه ، وافصاحه عن نية بقاء الاحتلال لهذا اشار على جورست ان يكمل ما بداه من مساعدة المعتدلين من الاعيان على ابراز حزبهم (٧٦) فهل نفذ جورست ما اشار به سلفه ؟ لم تكن بريطانيا قد رات نتيجة تشجيع كرومر للمعتدلين ، وكان على جورست ان يتبع احدى السياستين : أما معاداة المعتدلين ، بكسب الخديو الى صفه وضرب القوى الوطنية وعزلها بالوفاق معه ، او بكسب المعتدلين بمعاداة الخديوى ومعه القوى الوطنية الاخرى ، وقد بات امر المعتدلين معروفا لدى جورست ، ومن ثم لم يخش بأسهم ورأى الادعاء للاستمرار معهم فوجه ثقله نحو الخديو لاكتسابه وابعاد الوطنيين من حوله وتعريتهم حتى يمكن تصفيتهم .

كما بات واضحا ان بريطانيا ، عقب دنشواى ، تواجه مشكلات اكثر الحاحا : تحدى المانيا العسكرى وقوتها الدبلوماسية ، والمسألة الايرلندية ، واعتراض مجلس اللوردات على ميزانية لويد جورج وما ترتب على ذلك من مناقشات حول الاصلاح البرلمانى ، وكانت اغلبية الاحرار فى البرلمان قد تناقصت منذ عام ١٩٠٦ ، كما ان احساسهم بالاثم بسبب دنشواى قد تلاشى مع الوقت واصبح الوزراء اكثر التزاما بالمحافظة على مصالح بريطانيا الاستعمارية واقل حرصا على تشجيع الحكم الذاتى ، واخيرا فان وفاة السير هنرى كامبل بانرمان رئيس الوزراء المتطرف بعض الشىء عام ١٩٠٨ قد اتاحت للثلاثى الاستعمارى المكون من اسكويث وجراى وهولدين ، السيطرة على مجلس الوزراء (٧٧) .

---

(٧٥) مذكرات سعد زغلول ، ك ٦ ، ص ٢٤٢

(٧٦) زكريا سليمان بيومى : الحزب الوطنى من ١٩١٢ — ١٩٥٣ ماجستير غير منشورة ص ١٨ (وليس دقيقا ما ذكره من أن كرومر قد أشار على جورست بأن يعمل على اظهار حزب يضم المعتدلين من الأعيان) .

(٧٧) آرثر جولد شمدت : الحزب الوطنى المصرى ، ترجمة غير منشورة لفؤاد دواره pp. 176, 247.

وبالنسبة لحزب الأمة فقد شرع منذ البداية يخطب ود العميد الجديد فذكرت جريدته بسعى كرومر مشكورا لتلبيته طلب بعض كبار المزارعين ومنع بيع أملاك الدائرة السنية للشركات الكبيرة ، وبيعها لهم حصصا صغيرة وأملوا ان تكون هذه سياسة خلفه أيضا (٧٨) كما حضته النصح بان يعتمد فى معلوماته على كبراء الأمة الذين تربطهم به رابطة العمل بالضرورة (٧٩) .

وكان على جورست قبل كل شىء أن يترضى الخديو الذى التت به معاملة كرومر القاسية فى احضان مصطفى كامل وحزبه ، وحتى جعلته يصرح بأنه يميل الى الحياة الدستورية . وقد نجح جورست فى هذا الترضى نجاحا عاجلا وانحرف نحو السلطة الشرعية انحرافا شديداً واطلق يد عباس فى امور كثيرة (٨٠) وعزف عن التدخل رسميا فى عمل من اعمال الحكومة والقى كل المسئولية على كاهل الموظفين فى الاعمال التى تتعلق بهم ، وكان يود أن يسير مع الجناب العالى سيرة الملاينة والمجاملة (٨١) وقد لخصت خاتمة تقريره عن عام ١٩٠٨ فلسفته وهى انه ينبغى على الانجليزى الذى يخدم فى مصر أن يتولى القيادة دون ان يظهر بمظهر القائد ، وهذا يقتضى منه أن يعمل من وراء ستار (٨٢) .

وقد تحدثت مصادر عديدة عن ان تغييرا كبيرا قد حدث فى سياسة حزب الأمة نتيجة الوفاق فقد انحرفت الجريدة عن تأييدها للاحتلال وباقت الى التأييد العام بمهاجمتها المعتمد والاحتلال وكبار الموظفين (٨٣) ، وانه تحول من طلب الاصلاحات التدريجية الى المطالبة صراحة بالاستقلال

---

(٧٨) الجريدة ٤٢ في ١٨ أبريل ١٩٠٧ (الكفاءة الزراعية) .

(٧٩) الجريدة ٥٠ في ٧ مايو ١٩٠٨ (تقرير كرومر : التعصب الدينى) .

(٨٠) انظر شفيق غربال : تاريخ المفاوضات ، جـ ١ ، ص ٣٣ ، روئستين : تاريخ المسالة المصرية ص ٢١٩ ، جولد شمدت : الحزب الوطنى المصرى ، p. 137.

(٨١) مذكرات سعد ، ك ٦ ، ص ٢٦١ .

(٨٢) Egypt, No. 1, 1908, p. 49

(٨٣) Alexander, J. : The Truth about Egypt, p. 137.

التام (٨٤) فلم يمض على هذه السياسة شهرا حتى بدت النقمة الانتقادية للجريدة اكثر حدة (٨٥) على ان حملتها لم تتجاوز حدود النقد الحصيف ولم تقصد من وراء حملتها ان تطالب بانهاء الاحتلال (٨٦) .

وعلى مدى عام كامل لم تفصح الجريدة عن موقفها من جورست او خلال ما سمى بعام الوفاق الأول ذلك انها كانت تستكشف اذ ذاك موقفه من الاعيان وتتفحص علاقته بالخديوى وما يترتب عليها . ثم هى تحاول بطرف خفى ان توجه انظار السير الى اهمية كبار الامة حتى انها عندما احست بخيبة الأمل وطفقت تهاجم تقريره فى مايو عام ١٩٠٨ ابانت انها « كانت تتوسم فيه ان يكون مؤديا فكرة الطبقة العالية من المصريين على حقيقتها كما هى »(٨٧) وحين اتضحت لها ابعاد سياسة الوفاق وان تجاهله لحزب الأمة بات أمرا مؤكدا اندفعت بائسة فى مهاجمته واصفة سياسته بانها سياسة الالغاز والاحاجى ، سياسة المطل والتسويف (٨٨) وكان اول ما اخذته عليه هو سياسته الاقتصادية « فقد اقام بين ظهرانينا عاما كاملا تفشت فى خلاله الازمة المالية تفشيا هائلا فلم يشأ ان يمد يده لمساعدة الامة باى صورة من الصور ... والسير جورست باتفاقه مع السلطة الشرعية اشد خطرا علينا من اللورد كرومر » واتهمت الحكومة بانها رفضت ان تمد يدها بعمل يخفف من الأزمة المالية (٨٩) . كما مست هذه السياسة حجم الحزب كما راينا عند خروج الكثيرين عليه ، وخاصة الموظفين الذين آثروا جانب الحكومة وقد ابان الحزب عن استيائه وحنقه على ذلك بأن كتب لانجلترا مطالبا بعودة كرومر ، بالرغم من ان سياسته لا تخالف مطلقا سياسة

---

(٨٤) Landau, J. : Parliaments and Parties. p. 138.

(٨٥) Elgood, P.G., The Transit of Egypt p. 145.

(٨٦) حسين فوزى النجار : الجريدة تاريخ وفن ، دكتوراه غير منشورة ص ٩٤ .

(٨٧) الجريدة ٣٥٤ في ٥ مايو ١٩٠٨ .

(٨٨) الجريدة ٣٥٤ فى ٩ مايو ١٩٠٨ .

(٨٩) الجريدة ٣٥١ في ٥ مايو (عام الوفاق ..) وكذلك ٣٦٢ في ١٧ مايو ١٩٠٨ (الحالة الحاضرة) .

سلفه (٩٠) . كل ما فى الأمر أن جورست باتفاقه مع الخديو كان أشد خطرا عليه .

المهم أن جريدة الحزب بدأت بالفعل حملة صادقة على سياسة الاحتلال البريطانى فى شكل سلسلة مقالات بعنوان « نحن والاستقلال » حللت فيها وعود واعمال جورست ووصفت الحالة السياسية فى عهده بالغموض وانتقدت سياسته المالية التى أفقدت أوربا الثقة بالسوق المصرية وانتقدت كذلك سياسته الادارية ومداخلته فى أمر الحكومة فوق ما تجيزه القوانين ، أما سياسته التعليمية فقد وصفتها بأنها لم تكن أكرم من سياسة سلفه (٩١) وطالبت بالغاء مناصب المستشارين ، وتساءلت هل شرعت انكلترا لنا الدستور حتى تميت الاستبداد سبب الفساد ؟ كلا (٩٢) وخلال بقية عام ١٩٠٨ لم تتوان الجريدة عن الهجوم على سياسة الوفاق التى ابعدت حزبها عن الوكالة ، والقت بالخديو فى أحضان جورست مما أفقده تعاون حزب الأمة ، الذى كان من مؤيديه أعضاء فى الوزارة ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية والهيئات القضائية . بل أدى الى هجومه على سياسته واتهامها للوفاق بأنه مبنى على تخدير الشعور الوطنى والتغلغل فى جميع المصالح والقضاء على شخصية الأمة وايقافها فى المدنية عند حد لا تستطيع معه أن تتطلع الى الحرية والاستقلال (٩٣) كما ادت هذه السياسة اخيرا الى جعل حزب الأمة والقوى الوطنية الأخرى فى معسكر واحد ، فانبرت الجريدة تدافع عن الحركة الوطنية المصرية ضد اتهامات الصحافة الإنجليزية مؤكدة أنها حركة طبيعية « سببتها كراهيتنا للحكم الشخصى على

---

(٩٠) الجريدة ٢٦٢ فى ١٧ مايو ١٩٠٨ .

(٩١) الجريدة : أعداد ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ — فى ٨ ، ٩ ، ١١ ابريل ١٩٠٨ (نحن والاستقلال) .

(٩٢) الجريدة ٣٣٣ فى ١٢ ابريل وكذلك ٣٥١ فى ٥ مايو ١٩٠٨ وقد ذكرت قبل ذلك أنه اذا صح ان عصر كرومر عصر الجهل والغنى تاجرى بعبير جورست أن يسمى عصر العلم والافلاس ، وايدت رأى « الديلى » فيه ونشرته (الجريدة ٣٨١ فى ٩ يونيو ١٩٠٨) وقد أطلقت اللواء على جورست لقب كرومر الثانى ، انكليزى ذهب وانكليزى حضر (اللواء ٢٦٤٤ فى ١٢ مايو ١٩٠٨) .

(٩٣) الجريدة ٤٠٢ ، ٤٠٣ فى ٤ ، ٥ يوليو ١٩٠٨ .

أى صـــورة »(٩٤) وابانت أن الانجليز من خـــلال تقاريرهم وتصريحاتهم وتصرفاتهم فى مصر ، يطمعون فى شىء اكثر من المحافظة على طريقهم للهند ومصالحهم المالية (٩٥) وفى تقييمها للعام الثانى لسياسة الوفاق اثارت الرأى العام على سياسة جورست ، فلا يحل فى شرعة المتمدين أن تتخذ الأمة كمية عاطلة لا يحترم لها قول ولا يجاب لها طلب »(٩٦) .

وقد ابدى جورست سخطه على حزب الأمة فى تقريره عن عام ١٩٠٨ ورأى فى انتقاد رجال الحزب الوطنى للحكومة والسخط عليها أمرا طبيعيا بينما يبدو غريبا ان يقف سواهم ممن هم أقل تطرفا ، هذا الموقف ، وفسر ذلك بانتشار روح التمرد فى البـــلاد الشرقية نتيجة الحركات الدســـتورية وتفشى روح حب الشهرة والظهور بالحملة على سياسة الحكومة ورجالها ، ولكنه أمل ان يزول ما تطرق الى قطاع كبير من الطبقات العليا من تطرف وحدة بالصبر ومرور الزمن (٩٧) كما اوعزت سلطات الاحتلال الى رجـــال الادارة بالتدخل فى انتخابات مجالس المديريات حتى لا يفوز احد من اعضاء حزب الأمة ، ويذكر الهلباوى ان سقوط لطفى السيد واعضاء الحـــزب الآخرين كان نتيجة لذلك (٩٨) .

وقد شنت الجريدة حملة شعواء على هذا التقرير بدأت فى ١٠ مايو عام ١٩٠٩ أوضحت فيها أن جورست اثبت ان مصر لن تستقل حتى يظهر ارتقاؤها ، وأنه يجب حرمانها من هذا الارتقاء باستدامة النظام البيروقراطى ، وان الذى يحكم على كفاءة المصرى هم المحتلون ، وردت عليه طعنه على

---

(٩٤) الجريدة ٤٤٥ في ٢٣ اغسطس ١٩٠٨ .
(٩٥) الجريدة ٤٩٠ في ١٤ أكتوبر ١٩٠٨ .
(٩٦) الجريدة ٤٩١ في ١٥ أكتوبر ١٩٠٨ .
(٩٧) Egypt, No. 1, 1908, p. 49.
(٩٨) مذكرات الهلباوى ص ٨٦ وقد أشار لطفى فى مذكراته الى سقوطه (ص ٨١) ولم يذكر سببا لذلك وان كانت صحيفة الرائد العثمانى في عدد ٢٣٠ في ٣ يناير ١٩٠٨ قد ذكرت أنه طعن في نتيجة الانتخابات بحجة أنها جرت على غير القانون واتهمت مدير الدقهلية بالتدخل ... ثم ذكرت في عدد ٢٣٤ في ٩ مارس ١٩٠٨ أنه قد تم انتخاب محمود الاتربى كما هو المنتظر وهو منافس لطفى وكان قد انشق على الحزب وربما جاء انتخابه مكافأة له .

كفاءة مجلس الشورى ، وارجعت بطأه الى تفريق الحكومة بين اعضائه بالرتب والنياشين ، وانتقدته لذلك مر الانتقاد (٩٩) .

وقد استمر عداء حزب الأمة للمعتمد البريطانى خلال عامى ١٩٠٩ ، ١٩١٠ وعندما صدر تقريره عن عام ١٩٠٩ ردت عليه الجريدة مفندة كل نقطة فيه ، مختتمة انتقادها بالاشارة الى علاقة مصر بانجلترا للمرة الأولى فذكرت أن « من الواجب علينا أن نذكر دائما أن علاقة انكلترا بمصر علاقة مؤقتة صرفة وليس لها أدنى صفة من صفات العلاقات الشرعية كعلاقة اللحاق أو الحماية او علاقة الاحتلال بالقانون »(١٠٠) .

وفى أسى عميق تحسرت « الجريدة » على أن الوفاق لم يكن مع الأمة « أن المحتلين كان فى استطاعتهم أن يجربوا هذه التجربة الجديدة : تجربة الوفاق مع الأمة ، يساعدونها على الدستور فتثق بوعودهم ويعملون حقيقة لخيرها فتعتمد على صداقتهم ، فاذا حان أجل الجلاء لا يجد الانجليز لهم أصدقاء أوفى من المصريين »(١٠١) والمحت الى ان الأمة ليست طرفا فى هذا الوفاق على ما فى ذلك من التناقض (١٠٢) ، واذا ما تذكرنا مفهوم الحزب عن الأمة التى يترأس عائلاتها أعضاؤه ، فمن المحقق انهم كانوا يريدون الوفاق مع حزبهم وليس مع الخديو ولما لم يأبه جورست لذلك المحوا الى انه من الممكن ان يكونوا طرفا فى هذا الوفاق ، وهذا يدل على مدى التخبط الذى عاناه الحزب ، وما أن احسن اعيان البلاد استقبال جورست فى سياحته ، حتى ابدت الجريدة انتقادها لذلك ، على استحياء وعلقت بأن « الذى ينكر

---

(٩٩) الجريدة ٦٥٨ في ١٠ مايو (نظـرة عامة الى تقرير السير غورست) ، ٦٥٩ فى ١١ مايو ١٩٠٩ (مجلس الشورى القوانين في تقرير غورست) وكذلك ٦٦١ في ١٣ مايو ١٩٠٩ (القوانين في تقرير غورست) .

(١٠٠) الجريدة ٩٥٥ في أول مايو ١٩١٠ .

(١٠١) الجريدة ٩٩٢ في ١٤ يونيو ١٩١٠ .

(١٠٢) « بديهى اننا يستحيل علينا الرضى بسياسة الوفاق هذه لان الوفاق مهما كان معناه ضئيلا وأثره ضعيفا فانه انما كان بين السلطتين وليست الأمة طرفا فيه » . الجريدة ١٠٩٣ فى ١٥ أكتوبر ١٩١٠ (واجبنا السياسى) .

كل الانكار ولا تبيحه الحرية الشخصية ولا المصلحة المصرية هو أن يقاد الأعيان لاستقبال عميد الدولة المحتلة «وفسرت ذلك بضعفهم أمام الحاكم وميلهم التقليدى الى الوقوف بين يدى هذا الكبير او ذاك (١٠٣) لذلك لم تر الجريدة بدا من التراجع عن هجومها العنيف ، فى الوقت الذى اعتلت فيه صحة جورست ، كما أن علاقة رجالها بالخديو قد سارت فى طريق التحسن ، ومن ثم ذكرت « ان من الخطأ الصريح أن يظن بأن المصريين يعتمدون فى بلوغ أمانيهم على مناواة الاحتلال ويتصورون أن معاندته تعجزه فتقضى على وجوده فى البلاد ... اننا حاولنا اعجاز انكلترا وما نحن بمعجزين (١٠٤) وفى ذلك عودة الى سياسة الملاينة مع رنة من اليأس الناتج أساسا عن احساس الحزب بالضعف نتيجة انصراف بعض الأعيان عنه ، وانشقاق الموظفين وبعض الشخصيات عليه وانهاكه من حدة الصراع مع الخديو . واذا كانت علاقة الحزب بالسلطة الفعلية تابعة أساسا من رغبته فى الحصول على مامش يتيح له الاشتراك فى السلطة ، فان موقف جورست من الخديو والحركة الوطنية — وفاق مع الأول وصدام مع الاخير — أربك حزب الأمة وافقده الثقة فى الركون الى السلطة الفعلية ممثلة فى جورست آنذاك ، ومن ثم سعى الحزب نحو الخديو — خصمه الاستراتيجى — فى محاولة يائسة لايجاد نوع من التناقض بينهما قد يفيد منه بشكل او بآخر ، ولكن الأحداث كانت أسرع مما توقع الحزب ، فما لبث جورست أن مرض مرضا جعل الدوائر البريطانية تفكر فى تعيين خلف له ، وما ان شاع أن بريطانيا سوف ترشح اللورد كتشنر معتمدا لها فى مصر حتى بادرت الجريدة بنشر مقال عن « النعومة والخشونة » أوضحت فيه ان لا فرق بين العميد المريض — جورست — وسلفه ، الا ما بين خصمين سياسيين لمصر أحدهما لين البنان حلو اللسان والآخر قوى البأس صعب المراس ، ولكن كلا

---

(١٠٣) الجريدة ١١٦٨ في ١٧ يناير ١٩١١ وقد استخدمت الجريدة كلمة « أعيان » على اطلاق معناها مما يفيد اشتراك أعيان البلاء ومنهم أعيان حزب الأمة في هذه الاحتفالات .

(١٠٤) الجريدة ١٢٦٦ في ١٤ مايو ١٩١١ .

الرجلين يقول انكلترا قبل كل شيء ، فاذا جاء اللورد كتشنر وتجبر وتكبر ثم رأى من الحق والانصاف أن ينصح للحكومة بتوسيع اختصاص الشورى تمهيدا للدستور أو بالغاء قانون المطبوعات ، فهو افضل من اى معتمد يذوب رقة ولطفا ... » (١٠٥) .

لقد تمنت بذلك اشراك حزبها فى الهيئات السياسية القائمة ، وأفصحت عن رغبتها حين تمنت أن يكون عهده عهد وفاق مع الامة (١٠٦) وقد أدلى الشيخ عبد الرحيم الدمرداش بتصريح لصحيفة الجارت زحب فيه بكتشنر ، ودعا مواطنيه الى معاونة الانجليز على ترقية البلاد وتحضيرها والعدول عن الشكوى من الاحتلال والهياج عليه ، وقد ايد لطفى السيد نفس المعنى فى حديثه لنفس الصحيفة (١٠٧) وحين حللت الجريدة الاسباب التى حملت بريطانيا على تعيين كتشنر ، ابانت عن اهمية موقع مصر للمحافظة على الهند ، وذكرت أن « البانجرمانزم » فى سياسة المانيا نحو الشرق وتحالفها مع « البانسلامزم » يجعل مركز الانجليز فى خطر ، ومن ثم كان اختيار كتشنر لهذا المنصب هو اختيار تمليه السياسة البريطانية التى تتوخى مصلحتها(١٠٨) . وبذلك ظلت الجريدة طامعة فى تحالف كتشنر مع الامة ومنحه لها حق الاشتراك الفعلى مع الحكومة وهى تعلم أن كتشنر ما اختير بالذات الا ليحمل السوط والعصا متوخيا مصلحة بلاده ، كما ذكرت أنها لا تستطيع أن تحكم على سياسته حكما قطعيا(١٠٩) وهى تعلم — ايضا — الظروف الدولية التى حدت ببريطانيا الى هذا الاختيار ، فى الوقت الذى اثار هذا التعيين قلقا لدى الدوائر السياسية والوطنية ، خاصة وقد ارسلت الوكالة البريطانية

---

(١٠٥) الجريدة ١٣١٤ في ٩ يوليو ١٩١١ .
(١٠٦) الجريدة ١٣٢١ في ١٧ يوليو ١٩١١ .
(١٠٧) مصر ٤٦٨٣ في ١٣ اكتوبر ١٩١١ — ومصطفى النحاس : سياسة الاحتلال ، ص ١٨٥ .
(١٠٨) الجريدة ١٣٣٣ فى ٣٠ يوليو ١٩١١ .
(١٠٩) الجريدة ١٣٢١ في ١٧ يوليو ١٩١١ .

صورة الخطاب الذى كان كتشنر ينوى القاءه امام الخديو ، وكان يشتمل على معان تفيد رغبته فى التدخل فى صميم شئون مصر ، وكان هذا الخطاب غريبا ومحرجا للخديو وللوزارة(١١٠) .

وبالفعل ما ان اتى كتشنر الى مصر حتى طرح سياسة سلفه وآثر الرجوع الى خطة الاشراف الانجليزى المتسم بالنشاط واليقظة ، والى حكم المصريين بنفسه ، ولهذا اصبحت الحكومة اوتوقراطية اكثر منها فى اى وقت مضى منذ الاحتلال ، اذ اخضعها كتشنر لارادته تماما وتوسع فى توظيف الانجليز فى الادارة ، فى الوقت الذى تحول فيه هؤلاء الى بيروقراطية جامدة متباعدة عن الشعب تماما وكان تدخله هذا مقصودا لمحاربة الخديو وتوطيد سياسة الاحتلال(١١١) وكان ان اعلن استياءه من الأحزاب ، ورأى ان صراعها مع بعضها لا يؤدى الى التقدم ، وقد ذكر ان الاهتمام بالمسائل السياسية اهتماما يقترن بالهدوء مفيد للحاكم والمحكوم لكن الاهتمام الذى يبنى على تحريف الأقوال ، والذى يدوم بأموال الحزب واجراءاته فلا جدوى منه(١١٢) . وازاء صرامته وتصريحاته لزواره ولأصحاب صحيفة المقطم التى تشير بعدم انتخاب رجال الأحزاب او المشتغلين بالسياسة ، قل دوران كلمة الأحزاب على الالسنة الا مقرونا بالاحتقار والابتعاد عن الانتساب اليها(١١٣) وقد احتارت الجريدة فى وصف سياسة كتشنر : هل هى سياسة خلاف ام وفاق ؟ وان كانت قد عادت فوصفتها بأنها « سياسة الشدة » ، وابدت اعتقادها بانها ليست وفاقا مع السلطة الشرعية على اية حال ؛ وطلبت من كتشنر ،

---

(١١٠) اسماعيل صدقى : مذكراتى ، ص ١٠ ، وقد اتى الى مصر فى سفينة حربية ، وكان يتكلم العربية ويعرف كل مركز من مراكز الوجهين ويلم بكل مسألة تقع فى البلاد ويذهب الى كل مكان ، انظر احمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ م ٢ ، ص ٢٧٤ .

(١١١) اسماعيل صدقى : مذكراتى ، ص ١١ ، احمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى ص ٨٠ وكذلك : Cromer, Abbas II ,p. XVI. الذى اضاف ان هذا النوع من الحكومة وان كان مثيرا للانتقاد الا انه ملائم لطبيعة البلاد مادامت القوة الفردية تستعمل لمصلحة الشعب المصرى .

(١١٢) Egypt, No. 1, 1911, p. 2.

(١١٣) مذكرات سعد زغلول ، ك ٢٠ ، ص ١٠٠٨ ، ك ٢٣ ، ص ١١١٠ .

الذى لمصر عليه حقوق سابقة أن يمعن النظر فى الحال الحاضرة فيخلى بين النفوس وبين الحـــرية » (١١٤) ثم احتدت لهجتها بعض الشىء عندما اعلن كتشنر بأنه لا يريد فى البلد احزابا سياسية ، وذكرت « أن من الخور وقلة الوطنية أن يجاريه رجالنا فى قوله هذا لاننا ما كنا نعمل طبقا لرغبات الاحتلال ولم نكن لننتظر حكم الاحتلال على حركتنا الوطنية حتى نتبعه فى أمرها » (١١٥). وحين ادلى كتشنر بحديث الى صحيفة المورننج بوست ، وانكر فيه وجود الاحزاب وذكر ان الموجود فعلا هو اشخاص يعملون فى الاحزاب لمصالحهم الخصوصية(١١٦) ؛ انبرت الجريدة للرد عليه وذكرت أن هناك صـــدورا واعيانا خزائنهم عامرة ونفوسهم شـــاسعة من خير الله يشتغلون لمصـــلحة وطنهم ، وان كل من يطلب الى حزب فى بلاد استبدادية أن يضارع غيره فى بلاد برلمانية كمن يطلب الطيران من مقصوص الجناح (١١٧) .

وهكذا بدا ان المعركة بينهم وبين كتشنر قـــد دارت حول احتقاره او انكاره لوجود أحزاب مصرية بالمعنى الصحيح واثباتهم لوجودهم بشكل ما ، ولم تتعد اكثر من ذلك لتتصل بقضايا السياسة ، وازاء عناده وتشدده فى انكار وجود الاحزاب اصلا ، من ثم لم يروا بدا من التراجع فى حملتهم خاصة بعـــد عام ١٩١٢ ، حتى اننا نلمس اتجـــاه جريدتهم الى توجيه المصريين وترشيدهم ، فقـــد طغت هذه السمة على سمة النقد ، الا أن هذا اللين ليس قاصرا على الجريدة وحدها بل شمل الصحف الوطنية الأخرى (١١٨) ، وكان لأتباع كتشنر لسياسة زراعية طيبة وزياراته للأقاليم واحتفاء الأعيان به فى سرادقات أقاموها له(١١٩) واغضاء الجريدة عن التعرض لسياسته

---

(١١٤) الجريدة ١٤٦٦ فى ٩ يناير ١٩١٢ .
(١١٥) الجريدة ١٤٨٧ فى ٣ فبراير ١٩١٢ .
(١١٦) نقلا عن الجريدة ١٤٩٠ فى ٦ فبراير ١٩١٢ .
(١١٧) الجريدة ١٤٩٣ فى ١٠ فبراير ١٩١٢ .
(١١٨) حسين فوزى النجار : الجريدة تاريخ وفن ، دكتوراه غير منشورة بجامعة القاهرة ص ٢٣٦ .
(١١٩) يوسف خليل جاد الله : تطور الحركة القومية فى مصر ، دكتوراه غير منشورة بجامعة القاهرة ، ص ٢٢٢ والمرجع السابق أيضا ، ص ٢٣٧ .

بشيء ، اثره فى اهتمام كتشنر بحزب الامة حتى انه افهم الخديو انه عند حدوث تغيير فى الوزارة فان الحكومة قد تفكر فى حزب الامة ، وقد كتب لحكومة بلاده فى نهاية عام ١٩١٢ فوصفهم بانهم « طائفة من اصحاب الاراضى ليسوا اصدقاء للخديو »(١٢٠) . وكان رد الفعل عند الجريدة ان بادرت اللورد بالشكر والثناء ، لانه انقذ البلاد من الافلاس ونصح الفلاح بوجوب ايفاء الديون والاهتمام بالتوفير ، وعندما اصدر تقريره عن عام ١٩١١ كانت له المديح لهمته فى مشروع المصارف « فلولاه لبقى هذا المشروع العظيم فى قمطر الأوراق المخزونة » (١٢١) وبذلك تغير موقف الجريدة للمرة الاولى من اللورد كتشنر وانتقلت من طور اثباتها لوجود الحزب الى طور الاشادة بمنجزات كتشنر الاقتصادية والزراعية بوجه خاص ، فى الوقت الذى لم تتعرض فيه للمسائل السياسية من بعيد او قريب ، فشارت فى نفس الطريق الذى اختطه كتشنر للبلاد .

* * *

من ذلك كله اتضحت علاقة حزب الامة « رسميا » بالمعتمدين البريطانيين فى مصر ، الذين عاصروا حزب الامة ولكن ثمة جانب آخر يكمل صورة موقف الحزب من الاحتلال ، يتمثل فى العلاقات ذات الطبيعة الخاصة بين بعض رجال الحزب او فئاته ودار الوكالة البريطانية فى مصر ، فالمفهوم انه لا تقع مسئولية التعبير عن الموقف السياسى للحزب على الموظفين المنتمين له ، بحكم انهم لم يتصدوا لذلك فى جريدة الحزب ، وبحكم وظائفهم التى حالت دون عملهم بالسياسة العملية او الصحافة ، وعملهم فى جهاز الحكومة ، الذى يحول بينهم وبين انتقاد مسلكها ، وبالتالى مسلك الاحتلال المسيطر عليها ، ولكن يبدو ، الى جانب الأسباب السابقة ، أن هناك سببا آخر

---

(١٢٠) المرجع السابق ص ٣٢٢ ، (عن كتاب آرثر : حياة اللورد كتشنر ج ٢ ص ٣٤١) .

(١٢١) انظر الجريدة ١٥٨٨ فى أول يونيو (نجاتج اللورد) ، ١٥٨٩ فى ٢ يونيو ١٩١٢ اللورد والنقابات الزراعية ليوسف البستانى ، ١٧٢٣ فى ٢٥ نوفمبر ١٩١٢ (اللورد كتشنر والفلاح) .

يحول دون ذلك ، وهو العلاقات ذات الطبيعة الخاصة او الشخصية التى تربطهم برجال الاحتلال ، حتى انها جعلتهم موضع اتهام بالنسبة للقوى الوطنية الأخرى ، التى تشككت فى نوايا الحزب(١٢٢) ومع ذلك لا نستطيع ان نخرج « أعيان الحزب » عن دائرة هذه العلاقات ، خاصة وقد خطب الأعيان ود قواد جيش الاحتلال منذ دخلوا مصر وقدموا الهدايا لهم ، وكان رئيس الحزب ، ضمن لجنة شكلت لذلك ، وحين كتب كرومر لحكومته عن الاضطرابات القادمة واحتمال نشوب ثورة بالاسكندرية ، ذكر ان عددا كبيرا من اشراف البلاد ، وملاك الأراضى ، واعضاء شورى القوانين الذين يزورون الوكالة باستمرار قد عبروا عن استيائهم(١٢٣) ، كما بدت هذه العلاقات فردية احيانا ، فمصطفى خليل استقبل ضباط الاسطول الانجليزى واحتفل بهم وخطب فيهم مطريا اعمال الاحتلال(١٢٤) . كما اقام محمود الاتربى وعثمان سليط مرقصا لجنود جيش الاحتلال(١٢٥) بل ان المودة التى بين الشيخ الدمرداش والقادة الانجليز جعلته يقترح على سعد زغلول ان يشتركا فى مظاهرة اكراما للأسطول الانجليزى القادم فى (٢٠ اكتوبر ١٩١٣) (١٢٦)، وعندما اراد الانجليز الاستعانة بخبرات مصرية فى المسائل الزراعية بالسودان استقدموا حمد الباسل الى الخرطوم واكرموا وفادته ، فكتبت الجريدة بذلك ، وكان فى مقدمة مستقبلى كتشنر عند زيارته للسودان(١٢٧) ، ويبدو

---

(١٢٢) Ahmed, J. M. The Intellectual Origins. p. 70.

(١٢٣) FO. 407, No. 132, part LXIII, 9 Dece. 1905, No. 303.

(١٢٤) مذكرات محمد فريد ، القسم الثانى ، ك ٢ ، ص ٦١ وقد كوفىء على ذلك حين دفع به ضد اسماعيل اباظة فى انتخابات عام ١٩١١ ليصبح عضوا في شورى القوانين بدلا منه ، مصطفى الشهابى : اسماعيل اباظة باشا ، ص ١٧٠ كما يؤيد مقالة استقباله للاسطول الانجليزى واحتفائه به ص ١٧٢ ، نقلا عن التيمس .

(١٢٥) الرائد العثمانى ٢٣٧ في ٢١ ابريل ١٩٠٨ .

(١٢٦) مذكرات سعد زغلول ، ك ٣ ، ص ١٩١ وكان يحضر هذا الحديث حسن عبد الرازق وقد اجاب سعد « باننا لا نريد ان نعرض انفسنا لسخط قومنا من غير ان نرى اقبالا من الاخرين » المذكرات ك ٣ ، ص ١٩٣ كما نشر الدمرداش مقالا فى الجازت مرحبا بكتشنر ومعبرا عن عواطفه نحو الانجليز (مصر ٤٦٨٣ في ١٣ اكتوبر ١٩١١) .

(١٢٧) الجريدة ١٥٠٨ في ١٧ فبراير ١٩١٢ (عميد عائلة الباسل) وعدد ١٥١٦ في ١٧ مارس ١٩١٢ (جولة في السودان بقلم حمد الباسل) .

كذلك ان ثمة علاقات شخصية بين بعض السيدات المصريات وزوجات رجال الاحتلال ، فنعلم مثلا من حديث ملك حنفى ناصف عن اللادى كرومر انهما كانتا صديقتين(١٢٨) .

أما بالنسبة للموظفين ، فقد سمحت علاقاتهم الوظيفية لصلاتهم برجال الوكالة ، بالنمو والاستمرار ، وان غلب عليها الطابع الوظيفى نتيجة لذلك، وقد رأينا سياسة الاحتلال فى توظيف أبناء الأعيان ، وكان لذلك كله اثره فى نشاط الحزب وموقفه من مسألة الاحتلال والجلاء فجورست يمتدح محمد محمود ، مدير الفيوم ويصفه بأنه جنتلمان صغير السن ويجب مساعدته(١٢٩) وقد أهداه ملك وملكة الانجليز صورتيهما ، عندما صار محافظا لعموم القنال(١٣٠) . أما فتحى زغلول فكان قبل معرفته بكرومر ، صديقا حميما للمستشار الحقانية (مكلريث) (١٣١) وكان يطلعه على بعض المسائل المتعلقة بالقضايا الوطنية دون علم الخديو(١٣٢) .

كما كانوا احيانا يتكلمون فى حق بعضهم فى دار الوكالة البريطانية فسعد زغلول يروى أن محمد محمود قد اعترف انه تكلم فى الوكالة فى حق أبيه وشعراوى باشا(١٣٣) وقد عرفنا صلة مكلريث بعبد الخالق ثروت ومدى ثقته فيه ، التى بلغت مسامع جورست ، حتى انه عندما رشحه له مصطفى فهمى نائبا عموميا ، وافق على الفور(١٣٤) كما وصفه فى تقريره عن

---

(١٢٨) مجد الدين حفنى ناصف : آثار باحثة البادية ، ص ١٨٦ .

(١٢٩) مذكرات سعد زغلول ، ك ١٢ ، ص ٦٠٧ (فى ٢٢ مارس عام ١٩٠٨) .

(١٣٠) الجريدة ١٤٨١ فى ٢٧ يناير ١٩١٢ (هدية نفيسة) .

(١٣١) وقد اشار فتحى الى انه اعانه فى تأليف كتابه « المحاماة » . انظر الكتاب ص ١١٠ .

(١٣٢) ويروى عنه سعد أن امرأة قدمت عريضة للنيابة بأن هناك جمعية سرية تهيج الرأى العام ضد الانجليز بتشجيع من الخديو وأن فتحى تسلم هذه العريضة من النائب العمومى (ثروت) وترجمها لمكلريث دون علم الخديو (مذكرات سعد ، ك ١٧ ، ص ٨٩٤) .

(١٣٣) وقد ذكر سعد بأنه قال بأنهما مضادان لمشروعات قانون التركات (الشركات ؟) وعلق سعد « ويظهر لى انه غير مخلص فى أقواله لأن هناك قرائن كثيرة تدل على كذبه » (مذكرات سعد ، ك ٢٣ ، ص ١١١٤ — ١١١٥) .

(١٣٤) مذكرات سعد زغلول ، ك ١٢ ، ص ٥٢٩ .

عام ١٩٠٨ بأنه بالرغم من صغر سنه فقد ثبتت كفاءته ومقدرته فى المسائل القضائية والادارية(١٣٥) . وقد وقف ثروت موقفا لا يحسده عليه الوطنيون ، عندما كان نائبا عموميا ، وذلك حين دبرت ما عرف « بمؤامرة شبرا عام ١٩١٢ » ، لاغتيال عباس وكتشنر ومحمد سعيد ، وضبط خطاب من احد المتهمين الى آخر ، اعتبره فليبيدس دليل اتهام وفسره النائب العام تفسيرا يتلاءم مع رغبة فليبيدس » (١٣٦) .

ولم يجد رجال الاحتلال خيرا من المحامين أعضاء حزب الامة ، للدفاع عن قضاياهم ، فحين اقامت النيابة دعوى على مأمور ضبط القاهرة (فليبيدس) انتدب عبد العزيز فهمى للدفاع عنه ، ثم اعتذر عنها بعد أن علم بغضب الخديو من ذلك (١٣٧) وتولى الهلباوى عنه هذا الأمر ، رغم اعترافه بأنه ممن يشكون فى أمانة فليبيدس ، فمعظم ما أصاب خيار الوطنيين من الاضطهاد والاعتقال والسجن يرجع الى دسه عليهم وتحريض السلطة الانجليزية على تعقبهم »(١٣٨) .

ويتصل بكل ما سبق ان سلطات الاحتلال كانت تتخذهم ، حتى قبل اعلان حزبهم ، رسلا « للتهدئة والتخويف » لدى الوطنيين ، فعندما حدث اعتصاب طلبة الحقوق عام ١٩٠٤ أرسل كرومر كلا من لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ومحمد أبو النصر وحسن عبد الرازق لتسكين ثائرة الطلبة ، وقد روى شاهد انه سمع عبد العزيز فهمى يقول لهم « اليس اللورد قادرا على اغلاق كل المدارس »(١٣٩) واذا اعتبرنا ذلك مبالغة من صحيفة (مصر الفتاة) المنتمية للحزب الوطنى ، فان سعد زغلول يروى

---

(١٣٥) Egypt, No. 1, 1908, p. 3.

(١٣٦) محمد انيس : الاحتلال البريطانى والحركة الوطنية قبيل الحرب العالمية الأولى مباشرة ، مؤامرة شبرا عام ١٩١٢ — الاهرام ٢٦ مايو ١٩٧٢ .

(١٣٧) عبد العزيز فهمى : هذه حياتى ، ص ٦٣ .

(١٣٨) مذكرات ابراهيم الهلباوى ، ص ١٢٥ .

(١٣٩) مصر الفتاة ٨١ فى ٢٢ فبراير ١٩٠٩ ، ٨٣ فى ٢٤ فبراير ١٩٠٩ ويروى الشاهد انهم جميعا خطبوا فى الطلبة عدا حسن عبد الرازق .

. ما يؤكد الفكرة وهو ان كتشنر كان متخوفا من ان يكون بسعد رجل معارضة في الجمعية التشريعية ، فارسل له محمد محمود ليخبره بذلك ويمنيه بالوزارة كما ارسل له فتحي زغلول بمهمة مشابهة(١٤٠) .

وهكذا يبدو أن العلاقات الخاصة بين دار الوكالة البريطانية ورجال حزب الأمة قد لعبت دورا مزدوجا ، افاد كلاهما ، سواء فيما يتعلق بالحصول على الوظائف أو الترقي فيها بالنسبة لرجال الحزب ، أو في اجتواء الوكالة لهؤلاء ، بما لهم من نفوذ وتأثير ومعرفة ما يدور بين بعضهم والبعض الآخر .

* * *

ولعلنا بعد ذلك نتساءل : هل اثرت مواقف الحزب من المعتمدين البريطانيين ، وكذا علاقات رجاله بدار الوكالة البريطانية في مفهوم الحزب لقضية الجلاء ؟ او بمعنى ادق ما هي حقيقة العلاقة بين الاحتلال كأمر قائم ومفروغ منه ، والجلاء باعتباره مطلبا وطنيا عاما ، لدى حزب الأمة ؟ لقد عرفنا ان برنامج الحزب قد اغفل الحديث عن هذه القضية الهامة ، وان كان قد اسهب فيما سماه « ادوات الاستقلال » بدرجة جعلت الحديث عن الوسائل يطغى على معنى ومفهوم الهدف .

الاحتلال ، كما تقول الجريدة ، مسألة قوة لا مسألة حق ، والقوة تتغلب احيانا على الحق فتنهشه ولكنها لا تعدمه(١٤١) أما مفهوم الاستقلال فقد القيت عليه ظلا من التشويش ، فتساءلت كأنها تضع كل المفاهيم على مستوى واحد ، ينادون بالاستقلال ولا ندري هل يريدون من ذلك الدستور ، وكيف يتفق وجود الدستور ووجود الاحتلال ، أم يريدون بالاستقلال جلاء جنود الاحتلال عن مصر ، أم يريدون به التسوية بين المصريين وبين الأجانب النازلين في مصر امام القانون ، أم يريدون بالاستقلال الاستقلال الكامل أي

---

(١٤٠) مذكرات سعد زغلول ، ك (٢) ، ص ١٠٦٨ ، ١٠٨٠ .

(١٤١) الجريدة ٩٤ في ١٩ اكتوبر ١٩٠٨ (رأي في سلطة الأمة) .

تكون مصر مملكة مستقلة عن كل من عداها من غير احتلال ولا سيادة » ؟ ، ولكنها اجابت مفصحة بلسان لطفى السيد بانه على الكتاب والاحزاب أن تشتغل من الآن فى تعليم الشعب ، فتشجع تعليم القراءة والكتابة وتعلم حقوق الأفراد من الحرية السياسية وواجباتهم من الطاعة للقانون ..»(١٤٢) وهكذا تجنب لطفى تحديد مفهوم الاستقلال كمطلب وطنى ملح ، وركز على اعداد الأمة بكفاءات الاستقلال الذى يأتى به الزمن .

وعندما فاه « جراى » بتصريحات حول بقاء الاحتلال بقاء غير مقيد ، وثارت ثائرة الصحف الوطنية ، فى الوقت الذى اشتد فيه تأثير سياسة الوفاق على حزب الأمة ، ثارت جريدة الحزب على هذه التصريحات ورأت فيها خروجا على قاعدة الرابطة بين مصر وانجلترا . فان وعد الانكليز بالاصلاح ثم خروجهم كان هو الأساس للعمل بالاشتراك بين المصريين وبينهم (١٤٣) وبهذا اقرت الجريدة بأن هناك « رابطة » بين مصر وانجلترا ، وحسبت أن الانجليز جاءوا مصر ليصلحوها ثم ينصرفوا . ومهما يكن فان السلوك العملى الذى ارتضته هو انها طلبت من الوزارة الاستقالة احتجاجا على هذه التصريحات(١٤٤) وتمادت اكثر فى الخروج متجاوزة مفهومها عن الاستقلال ومبتعدة عن فكرة الاصلاح واسلوب التدرج والاعتدال ، فكتب لطفى السيد مقالا بعنوان « الاستقلال » وذكر فيه أن كل شعب مهما كانت تربيته راغب فى الاستقلال عامل عليه مضح فى سبيله كل ما عداه ... ويغلو بالمستعمر حب الاستعمار الى أن يقول بأن مصلحة الأمة المغلوبة أن تبقى محكومة بغيرها(١٤٥) ولكن لا يلبث لطفى فى حديثه الى مراسل الاجبشن جازيت ، أن يعود الى الحديث عن قاعدة التعاون مع الانجليز لتقريب يوم الجلاء « فالجلاء انما يكون متى بلغ المصريون درجة من القوة والمدنية لا تجد انكلترا عندهما عذرا تعتذر به لأوربا عن استمرار الحالة الحاضرة » ولما

(١٤٢) الجريدة ٦٠٩ فى ١٣ مارس ١٩٠٩ (ماذا نعمل فى السياسة للطفى السيد) .
(١٤٣) الجريدة ١٠٦٧ فى ١١ سبتمبر ١٩١٠ (الوزارة واستقالتها تصريحات جراى) .
(١٤٤) المصدر السابق .
(١٤٥) الجريدة ١١٩٧ فى ٢٠ فبراير ١٩١١ .

سأله المراسل عن مدى اعتقاده فى جلاء الانجليز أجاب لطفى « لسنا من الجهل بحيث نظن ان دولة ذات مصالح جمة فى هذه البلاد وقد مضى عليها ثلاثون سنة هى متصلة كل الاتصال بحكومتنا تترك هذا الوادى لدى كلمة منا كأن لم يكن شىء » ، وفى لهجة العاتب يقول لطفى للمراسل « ان انكلترا لا تكلف نفسها شرح قضيتها لهم » (١٤٦) .

ويبدو ان لطفى قد احس انه لم يقل للمراسل كل ما يريد فانشأ مقالا طويلا يحدد فيه « نظريتنا فى الاحتلال والجلاء » بدأه بالتساؤل : كيف يكون الجلاء ؟ وأجاب عليه بعدة اجابات بشر فيها بأن ذلك لا يتم باختيار الانجليز ما دامت مشاريعهم الاستعمارية متزايدة ، وسفه القائلين بالاستعانة على انجلترا بقوة اخرى لأن هذه سوف تحل محلها وسخر من عقد معاهدة دولية كذلك لأن هذه الظروف السعيدة غير موجودة الآن (١٤٧) .

وبعد أن سد لطفى كل السبل التى فتحها عاد الى فلسفة حزبه مؤكدا ان الجلاء لا يتم الا « بعملنا وارتقائنا بالقوة المعنوية ، قوة العلم والصناعة والتجارة والمزاحمة » ويسهب فى الحديث عن الكفاءات والأخذ بالممكنات دون المستحيلات « فالجلاء نتيجة لا مقدمة » واعتقادنا ان هذه النظرية التى جعلها حزب الأمة نصب عينيه ، نظرية الأخذ بالاسباب هى أقرب الطرق الى الجلاء وان طال وقتها قليلا أو كثيرا (١٤٨) . ولسنا ندرى كيف يتم ذلك وسلطات الاحتلال بيدها كل شىء فتترك للمصريين ما يجعلهم اقوياء مما يقطع منفعتهم من احتلال مصر خاصة ومشاريعهم الاستعمارية فى تزايد كل يوم كما ذكر لطفى فى بداية حديثه . بل انه وهو يتوجه بأحاديثه الى الشباب يطلب اليهم الثقة بوعود انجلترا وتصريحات ساستها « بل يجب علينا ان نعمل مع الانكليز لبلوغ النتيجة النهائية وهى الاستقلال »(١٤٩)

---

(١٤٦) الجريدة ١٣٧٥ في ١٩ سبتمبر ١٩١١ وكان المراسل قد سأله عن الفلاح المصرى والفوائد التى جلبها له الاحتلال فرد لطفى ان الفلاح لم يعد يقنع بذلك وانه يطلب الدستور ثم إن انكلترا لا تكلف نفسها عناء شرح قضيتها لهم .

(١٤٧) الجريدة ١٣٧٦ في ٢٠ سبتمبر ١٩١١ .

(١٤٨) نفس العدد .

(١٤٩) الجريدة ١٦٦٩ في ٤ سبتمبر ١٩١٢ .

ورحبت الجريدة بمشروع محاكم الاختلاط باعتباره خيرا أيا كان مصدره ، وعلقت بأن الاحتلال فعلى ضرف من اصله ... ولئن انكر الحق ذلك فان الحس لا ينكره(١٥٠) لقد كان الاحتلال — بمفهوم جريدة حزب الامة — قوة قاهرة او نازلة من السماء نصرفها الى مصلحتنا فان لم نستطع فلندفع ضررها عنا فان لم نستطع وجب علينا ان نتدرج الى تخفيف هذا الضرر ، وبهذا وضحت دون ان تدرى ، ان الامة مغلوبة على امرها ، وان مشاركتها للمحتل فى الحكم نوع من الوهم ، او انه يفتقد الى المساواة ومن ثم يوضح لطفى ان رضى الامة ، وعدم رضاها بأى مشروع كان لا يقدم ولا يؤخر صفة الاحتلال (١٥١) — انه يعترف أن « حق الرفض » وهو حق سلبى ، هو الآخر ضرب من الوهم لا جدوى منه فى الوقت الذى ينادى فيه بسلطة الامة ، ولا يجد « سببا لليأس من قبل الاحتلال »(١٥٢).

وعندما اعلنت التيمس أن الاحتلال سوف يدوم لخصت الجريدة مقالها وحاولت استشفاف نوايا السياسة البريطانية دون ان تعلق عليها بشىء او حتى تناقشها(١٥٣) ولكن حين اخذت اشاعة ضم مصر للامبراطورية البريطانية تنتشر ، وتواكبت معها اشاعة اعلان الحماية البريطانية عليها ، وبدت نذر الحرب العالمية فى آفاق السياسة الدولية ، افصحت الجريدة عن موقفها ، وذكرت أن المصريين ولو ان بلادهم تحت احتلال انجليزى الا انهم لا يفضلون عليهم دولة اخرى تجىء مغيرة غازية ، هى فى الاخلاق والحرية واللطافة والكياسة اقل بكثير من الانكليز ، فضلا عن ان الانكليز

---

(١٥٠) الجريدة ١٥٨١ فى ٢٣ مايو ١٩١٢ .

(١٥١) نفس العدد .

(١٥٢) الجريدة ١٦٧٥ فى ١١ سبتمبر ١٩١٢ ولقد عرف لطفى حاجة الامة الضرورية الى فترة غير محدودة من الوصاية tutélage انظر فى ذلك :
Wendell, Ch. The Evolution of the Egyptian National Image. p. 220.

(١٥٣) الجريدة ١٩٣١ فى ١٦ يوليو سنة ١٩١٢ (اعلان دوام الاحتلال وهل هو ضم) .

اليوم لطول عهدهم بمصر صاروا اصحاب رأفة وحنان عليها وعلى اهلها ... »(١٥٤) ... كذا !!

* * *

مما سبق اتضح لنا ان موقف الأمة من السلطتين الشرعية والفعلية ارتبط اساسا بمدى اتفاقهما او اختلافهما ، الأمر الذى يؤثر بشكل مباشر فى مسلك الحزب ، ان لم يكن فى تكوينه وحجمه وفترة بقائه ، لكن السمة الغالبة على موقف الحزب من الخديوى عباس حلمى كانت كما رأينا — سمة العداء ، ذلك أن طموح الأعيان السياسى قد دفع بهم الى معاداة السلطة الخديوية والطبقة التركية القديمة التى كانت تساندها فلم تستطع أن تكون بديلا طبيعيا لهذه الطبقة ، وان كانت قد عملت على أن تكون وريثا اجتماعيا لها كما لم يعد الأعيان قانعين بدورهم كما حددته لهم قوانين المجالس النيابية وصلاحياتها وبالمثل لم تكن أوتوقراطية الخديوى لترضى المثقفين من ابناء الحزب هذا الى معاداة اصحاب المناصب منهم للخديوى ، باعتبارهم جزءا من نظام اقامه لورد كرومر عدوه اللدود .

وقد مرت علاقة الخديوى برجال الحزب من طور التعبير عن حقده وغضبه ، الى طور اكثر فعالية ، استغل فيه الخديوى ما أتاحه له الوفاق مع جورست ليبطش بالحزب وبالرغم من التحسن الظاهرى فى هذه العلاقة بعد انتهاء الوفاق ، وتلويح كشتنر باستخدام القوة ، الا أن الخديوى لم يكن يأمن جانب الحزب بحال من الاحوال وقد كان عزل الخديوى اعفاء للحزب من اختبار صلاحية هذا التقارب عمليا .

اما السمة الغالبة على موقف الحزب من السلطة الفعلية ، ممثلة فى المعتمدين البريطانيين وجهاز الوكالة ، فلم تكن سمة العداء او التحدى ، ولم يتخذ هذا الموقف صراعا عمليا من نوع ما ، مما يتطلبه الموقف الوطنى عادة ،

---

(١٥٤) الجريدة ٢٢٦٠ في ١٢ اغسطس ١٩١٤ (لعل الانجليز — بقلم مراد (أ) وهو من المحامين وكان يكتب افتتاحيات الجريدة احيانا ولم يذكر اسمه كاملا) .

على الرغم من أن جورست قد فعل ذلك ، بشكل مؤثر ، بالنسبة للحزب عن طريق وفاقه مع عباس ، وكان كرومر قد عاون الحزب ما أستطاع وبكل وسيلة — عدا بذل الأموال وما كانوا بحاجة اليها — نصار رجاله أفضل أعداء انجلترا وان لم يكونوا خلصاءها الوطنيين . وظلوا على توددهم له حتى أحسنوا وداعه وما انتقدوه الا بعد أن تأكدوا تماما انه ذهب بغير عودة، وفي ظل حقدهم وعدائهم لجورست ، الذى ما حنقوا عليه الا وفاقه مع عباس ، ولكن أملهم فى عودة سياسة الخلاف مع الخديوى بمجيء كتشنر ، قد خاب لدى تصريح المعتمد الجديد باستنكاره واحتقاره للأحزاب ، وتجهمه لكل من الوطنيين والخديوى .

- وقد انعكست هذه المواقف والعلاقات على نظرية الحزب عن الاحتلال والجلاء فالاحتلال نازلة من السماء لا يملك لها المصريون دفعا ومن ثم وجب عليهم الاستفادة من بقائه ، وافترضت جريدة الحزب لذلك قاعدة للتعامل مع الاحتلال من منطق الأمر الواقع ، تبنى اساسا على اعداد الأمة بالكفاءات التى تنتج الاستقلال ولو بعد زمن ، مع التدرج والاعتدال والاعتقاد فى صدق نوايا بريطانيا . ولم يعرف لأحد من كتاب الحزب او المعبرين عن أفكاره خروجا على هذا المعنى بشكل له دلالة بما يعد تطورا لذلك المفهوم . فطرحوا ببرنامجهم هذا المعنى وظلوا ينادون به طوال فترة حياة الحزب وجريدته دون أن يتجاوزوا ذلك .